لیندا حسین

الآباء یرکضون

قصص

الآباء يركضون

الآباء يركضون / قصص
ليندا حسين
الطبعة الأولى 1442 / 2021
ردمك: 978-1-947836-50-1

دار أثر للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الدمام
تلفون: 00966505774560
الموقع الإلكتروني: www.darathar.net
البريد الإلكتروني: info@darathar.net

يمنع نسخ أو استعمال أي جزءٍ من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية.. بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى.. بما فيها حفظ المعلومات أو استرجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

الآباء يركضون

قصص

ليندا حسين

كل شيء تقريباً على ما يرام

- إلى ذكرى جدّي -

شجرة السرو الكبيرة

عمل أبناء عبدِ المنعم كلَّ ما بوسعِهم لرعايةِ والدهم. حين كان مريضاً أخذوه حتى آخرِ الدنيا للتشخيص والعلاج، ولأنهم عائلة ميسورة جداً، لم يعقْهم شيءٌ عن العنايةِ الفائقة به، لكنَّ عبد المنعم توفي، لأن مرضه أفلتَ من قبضة المشافي وأدواتِ التعقيم وآلاتِ إطالة العمر.

لعبدِ المنعم صديق قديم اسمه اسماعيل، قضى معه عمراً في لعب الورق والطاولة والهمز على النساء، ومن فرط حزن اسماعيل على فراق صديق عمره، قام بقطع شجرةِ السروِ الكبيرة، وهي شجرة كانت قد نمَتْ على طرف بستانه، وكبرتْ بقدرة عجيبة، حتى غدتْ أطولَ شجرة في منطقة الساحل. شجرة بهذا الحجم ربما تكون الأضخم في كل المعمورة، لكنَّ اسماعيل قرّر قَطْعها، لأنه لا يستطيع أن ينوح مثلَ النساء، ولأنّ حزنَه لم يكن ليهدّئه إلا قَطْعُ شجرةٍ مثلِ هذه الشجرة.

اختفتْ إلى الأبد الشجرةُ التي كانت دائماً حاضرةً في مشهدِ القرية، والقرويون الذين أطلّوا عند الصباح من أبواب بيوتهم وشبابيكها هزوا رؤوسهم مرتين لرؤية هذا الفراغ الكبير الذي ظهر فجأة؛ هناك فجوة هائلة أقلقتْ توازنَ المشهد المعتاد، وكثيرٌ منهم لم يعرف السبب.

البعضُ، وببعضِ التدقيق، عرف أنّ أولادَ الحرامِ قطعوا شجرةَ السرو الكبيرة، شجرةَ السرو التي تساوي ثروة.

كل شيء على ما يرام

في لحظاتها الأخيرة، اجتمع بناتُ حسنى وأبناؤها حول سريرها لوداعها، وقد تحققت أمنيتها بألا تموت وحيدة، وبأن يمسك يدَها حين تموت شخصٌ عزيز، كان على الأرجح أحدَ أبنائها الأعزاء.

زوجها الذي انتظر عند باب الغرفة، أرادها أن تبقى بضعَ لحظاتٍ إضافية، فقط بضعَ دقائق أخرى، لكنّ الموت لم يستمع له، وحسنى نفسُها كانت على عجل.

بعد أسبوع العزاء، بقي زوج حسنى وحيداً في منزل العائلة. بالرغم من جسده الذي أثقله طول العمر، بقي يخرج كلَّ صباح إلى الحاكورة، يسقي شجيرات الورد، ويقتلع الحشائشَ الضارة كي لا تتضايق زهراتُ حسنى، وكي يبقين مدللاتٍ مثلما كنّ في الأيام الخوالي. كل يوم يكرر هذه العملية ببطءٍ، وصبرٍ، وعناد.

الجيرانُ والأولادُ والعابرون بالبيت توقفوا عن المرور للاطمئنان على العجوز الوحيد وتسليته، إذ لا يستوقفهم أي تغيير في المشهد، الحديقة كما هي، والورد على حاله. إذاً، العجوز في أحسن أحواله، وكلُّ شيء على ما يرام.

عجوز الطابق الثالث

طوال الصيف حرصت العجوزُ التي تسكنُ الطابقَ الثالث من بناية السقا على جمعِ قرونِ الباميا الصغيرة، اختارتْها بعناية من بين عشرات القرون لتزيلَ عنها الرؤوسَ والأوبار، وتجفّفها في الهواء، كمؤونة للشتاء. كان يحلو لها أن تنجز هذه الأعمال قبيل المغيب من شرفتها المطلة على الشارع، بينما تحتسي قهوتها، وتلوّح للعابرين.

مع نهاية الصيف صار لديها عقدٌ طويلٌ من قرون الباميا، لفّته بحب، وعلّقتْه على مسمارٍ في الشرفة. استرخت الباميا اليابسة بدلالٍ على الحائط، وكان بريق الفخر يشعّ من عينيّ العجوز كلما مرت بعقد الباميا هناك.

من دون أيّ مقدّمات أتى الشتاء، وهبّتْ ريحٌ قوية حاملةً معها أتربة وغباراً وأكياساً سوداء، ومعها أيضاً حملتْ عقدَ الباميا الذي نسيت العجوزُ أن تربطه جيداً.

عرفت العجوز بجريمةِ الريحِ صباحَ اليومِ التالي، وبالرغم من توفّر كلِّ الأسباب لانفجار العجوز غضباً، إلا أنها لم تبح بكلمةِ شكوى واحدة، ولا حتى تنهيدة. فقط رفعتْ رأسَها ورمقت السماء بعتب، ثم دخلت إلى مطبخها الصغير لتعدَّ قهوتها.

لم تعدْ تؤثّرُ بها مثلُ هذه الأحداث، فقد أخذت السماء منها كلَّ الأحبة، ومن لم تستطع أخذَه رحلَ طوعاً إلى أمكنة أخرى. عقدُ الباميا هذا، ليسَ سوى عزيزٍ آخرَ يغادر، وقد اعتادتْ على ذلك.

الآنَ، بتجاعيدها الراضية، تجلسُ على الشرفة كأنّ شيئاً لم يحدث، تحتسي قهوتها بسلام، وتلوّح للعابرين.

نكاية بالزمن

قبعة القش التي كانت نادين تضعُها في الصورة ليستْ لها، بالتأكيد استعارتْها من عمّتها لحظةَ التقاطِ الصورة، وبالتأكيد أعادتْها لها فيما بعد.

نادين هي ابنةُ جيرانِ سماهر التي رافقتْها كلَّ يوم إلى المدرسة، وقد سكنتْ في الحارة عدةَ سنواتٍ قبلَ أن تنتقلَ مع أهلِها للعيش في مكان آخر. كانت لنادين عمة نظيفة للغاية، تأتيهم من مدينة بعيدة في زياراتٍ متقطّعة، لها بشرةٌ بيضاء كالحليب، وقد قام زوجُ العمة بالتقاطِ صورةٍ لنادين مع عمّتها في الحقل المليء بشقائق النعمان. حصل هذا في آذار ما، أو نيسان ما، في سنة بعيدة، وقد عرضتْ يومَها نادين الصورةَ على سماهر من دون رأفة، وأصيبت الأخيرة بالحمّى، لأنّه شيءٌ أبعدُ من الحلم بالنسبة لها الحصولُ على صورةٍ شخصيةٍ تريها لبقية الأولاد، وتعيد مشاهدتَها حين تكبر.

قبلَ مدة، تمكّنتْ سماهر من الحصول على عمل، وكان أولَ شيءٍ كافأتْ نفسَها به آلةُ تصوير... نكايةً بالزمن.

انتظرتْ إلى أن حلّ الربيع، فخرجتْ إلى البساتين التي تفور فيها شقائق النعمان، وقضتْ وقتاً طويلاً تلتقط لنفسها صوراً، تمتدّ خلفَها فيها خضرةٌ لانهائية، تلطّخُها الزهور الحمراء. وضعت سماهر في كل الصور التي التقطتها قبعةً تشبهُ كثيراً تلك التي وضعتها نادين يومَ التقاطِ صورتِها الشهيرة، والتي استعارتها بالتأكيد من العمة البيضاء.

تبدو سماهر أكبرَ بكثير في كل الصور، أكبرَ من نادين تلكَ الأيام، وتبدو ابتسامتُها مثلَ ماركة مقلَّدةٍ برداءة، وشقائقُ النعمان خلفَها مثلَ أزهار بلاستيكية.

لم تكسرْ سماهر آلةَ النكايةِ بالزمن، لكنّها توقفتْ نهائياً عن التصوير.

صورة عائلية

لم تمنح الطبيعة ابراهيم، الولدَ الأوسط في العائلة، ذكاءً جيداً، ولهذا كانت نكاتُه ساذجةً، يقول ما لا يجب أن يقال، وإذا حدث وقال ما يجب قوله، فإنه يقوله في اللحظة التي يجب ألا يقال فيها. مع مرور الوقت صار ابراهيم يعرف أن إطباقَ الفم شيءٌ مفيد للاحتفاظِ ببقيةِ الأصدقاء، لكنّه صار يفتح فمَه لالتهام الأطعمة، والتفاحِ، والفطائرِ، والقطايف، وصار يتكوّر، ويتكوّر، حتى غدا الأسمنَ في العائلة، ثم الأسمنَ في القرية، ولو أن جماعة غينيس سمعوا به لأدخلوه التاريخَ من أوسع أبوابه، وهو على أية حال وبسبب الحجم الذي وصل إليه، لم يعد يمكنه الدخولُ من الأبواب الضيقة.

في حفل زفافِ أخته الوحيدة، تأهَّبت العائلة لالتقاطِ صورةٍ جماعيّةٍ مع العروسين. وقف ابراهيم في أقصى اليمين، وابتسم. تسمّر أفرادُ العائلة حول العروسين، وابتسموا، والعروسان كذلك ابتسما.

ضغط المصور على زر الكاميرا، وخرج الفلاش.

حصل الجميع على نسخة من الصورة، وبفضلِ برامجِ الكمبيوتر الحديثة قاموا بقصِّ الحيّزِ الذي يقف فيه ابراهيم، فالصورة تبدو أفضلَ بكثير إذا حُذف منها ذلك الشيءُ المكوّر على اليمين.

ابراهيم حصل أيضاً على نسخة، ولأن الطبيعة لم تكن قد منحته قدراً كافياً من الذكاء، لم يلحظ أن الصورة تبدو أفضلَ بكثير إذا حُذف منها الحيّزُ

الذي يشغله ذلك الشيء المكوّرُ على اليمين. لهذا قام بطباعة الصورة من دون تعديل، وعلّقها على الحائط.

حين أخذ مسافةً منها، ونظرَ إليها، بدتْ له صورةً سعيدة، وشعرَ برضىً كبير عن ربطة العنق المقلّمة التي يرتديها في الصورة، والتي لبسَها خصيصاً لحفل زفافِ أختِه العزيزة.

ثلاثة مشاهد عن نساء برجوازيات

مشهد 1

ثلاثتُهنّ يقفْن خلف النافذة. العجوزُ على جهة اليمين، على يسارِها أمي، وعلى يسارِ أمي خالتي نادية. مايزلن في ملابس النوم. أراقبهن من الخلف وأنا أتنقّل بين الغرف. نعيش جميعاً حياةً متخفّفةً من عبء الرجال، ولهذا يبقى لنا الكثيرُ من الوقت لنعتني ببعضنا بعضاً.

ثلاثتُهن سيقفن خلف النافذة لنصفِ الساعةِ القادمة. هكذا يستقبلن أيامَهن كلَّ صباح. يشبهن بعضَهنّ من الخلف كثيراً. ظهورُهن انحنتْ وعرضتْ من طول الجلوسِ والأيامِ الكسولة. حين أعلنُ خروجي سيزحفن صوبي كتلةً واحدةً ليتأكّدْنَ أنّ هيئتي على ما يرام، وسيكون لامرأةٍ ثمانينية، هي جدتي، الرأيُ ذاته لامرأتين ستينيتين، هما أمي وخالتي، فيما يخصّ الماكياج، واللباسَ، وطريقةَ المشي.

تأتيني الجدة ببقايا فنجان القهوة: «تدويرة... اثنتان... ثلاث». تشرح لي. ستقرأ الفنجان في غيابي، وقد تستعين بابنتيها.

فناجينُ القهوة أيامي التي تبدو لهنّ غامضةً مهما حكيتُ في المساء من تفاصيل. هناك دائماً شيءٌ مفقودٌ في الحكاية... يقول الفنجان، والفناجين لا تكذب... تقول جدتي.

أنزل إلى الشارع. أرفع رأسي صوب نافذتهن. أنظر في عينيّ كلِّ واحدة منهنّ، وألوّح لها. هكذا فقط يصلهن شعوري بالأمان وبأنني سأعود كلَّ يوم بقدرٍ هائلٍ من السعادة ليتابعْنَ حياتَهنّ الهادئة من دون قلق. رؤيةُ ابتساماتِهن الخرقاء تجعلُ الجيرانَ الموجودين صدفةً في المشهد ينفجرون بالضحك. رؤيةُ ابتساماتِهن الخرقاء تجعلني أصاب بشيء من الحزن... بشيءٍ من الحزن، والدوار.

مشهد 2

إنه صباح الجمعة مجدداً. سماء محجوبة بالغيوم، ومطر.

نجلس بكسلٍ حول طاولةٍ واطئة قديمة، مشغولاتٍ بقراءة الفناجين المقلوبة. فناجينُ قهوتِنا جرائدُ الصباح. كل واحدة منّا تقرأ جريدةَ الأخرى.

بعد قليل سنقف عند النافذة: على اليمين جدتي، على يسارها أمي، على يسار أمي خالتي نادية، وعلى يسار نادية أنا. اليوم عطلة، ويمكنني التسكّعُ معهنّ عند النافذة إلى ما لانهاية.

«سنذهب اليوم إلى السينما»

بهذه العبارة كسرت خالتي صمتَنا، ثم تابعتْ: «بما أن المصعدَ قد أُصلحَ، يمكن لأمي الذهاب من دون حسابٍ لوجع المفاصل».

اتصلتْ بعد ذلك بموظفها المفضّل لتسألَ عن مواعيد الأفلام العربية.

«إنه فيلم عن الحب» قالت فخورة بإنجازها.

«جميل جداً» قالت الأخريات.

مشهد 3

مرّت السنوات إذاً، كما كان متوقَّعاً بالضبط.

امرأةٌ وحيدة عند النافذة، تديرُ ظهرَها لغرفِ البيت العتيق، وتراقب بشراً يمشون في الشارع. امرأةٌ حين تقف هناك تتذكّر كم كان هذا ممتعاً فيما مضى، حين كانت الأخريات مايزلن هنا.

...

على الطاولة القديمة الواطئة فنجانُ قهوة مقلوب... فنجانُ قهوة لن يقرأه أحد.

كل شيء عن علي

عندما كان صغيراً، كان الجميعُ – بلا استثناء – أكثرَ ذكاء، وأوفرَ حظاً، وأقوى بنية، وأطولَ قامة، وأوفرَ مالاً وجمالاً من علي. امتلكَ الآخرون كلّ ما يريدون، بينما كان ينقص علياً كلُّ شيء. بسبب هذا، صار علي يكشّر تلك التكشيرة التي عُرفت عنه، وارتبطتْ به مثلَ ماركة مسجلة. لقد كان يكشّر ليقنعَ الجميعَ أنه إذ تنقصه تلك الأشياءُ كلُّها، فهو لا ينقصُه الكبرياء. لكنّ علياً الصغير، وبينما يكشّر في وجهِ الجميع، كان موجوعاً من ذلك الحرمان كلّه.

حين كبر علي، أصبحتْ تكشيرتُه محفورةً في وجهه إلى الأبد مثلَ وحمة، أو جرح قديم. إنه إلى هذا اليوم، كلّما أحس بالخطر يكشّر... لذلك تراه مكشّراً دائماً. الجميع مشمئزٌّ من تكشيرته المغرورة، بينما هو طوالَ الوقتِ يرتجفُ من ذعره. هم لا يعرفون هذا، وهو لا يعرف أنهم لا يعرفون.

تلك الشوكولا العزيزة

كان عمري ثلاثَ عشرة سنة، حين سُمح لي بدخول السينما لأوّلِ مرة لأشاهد فيلماً لمخرجٍ شاب من مدينتي، عاد لتوه من الاتحاد السوفييتي بعد أن تعلّمَ كيف يصنع المرءُ فيلماً. في ذلك الوقت صبّ أهلُ قريتي غضبَهم على الفيلم الذي أنجزه ذلك الشاب الخائن، وسخرَ فيه من لهجة الفلاحين في اللاذقية، وأظهر بناتِهم بصورةٍ غيرِ محتشمة. مع ذلك، كان فيلمه وراءَ زيارةِ مئاتِ الفلاحين للسينما لأول مرة في حياتهم. جدّي شخصياً أخذتْه ابنتُه – خالتي الشابة – إلى السينما ليشاهد الفيلم، وقد ضحك كثيراً، ولكنْ بصوتٍ رزين. باختصار، شاهدَ جميعُ سكان اللاذقية ذلك الفيلم، كبيرُهم وصغيرُهم، الأمّيون والمتعلمون، جميعُهم ذهبوا وشاهدوا إسماعيل يطلق رصاصةً على أنفه، وأخذ الجميعُ يتحدث عن أنف إسماعيل، إلا أنا، لأنني كنت الوحيدة التي لم تشاهد الفيلم.

ثم سُمح لي أخيراً بالذهاب إلى هناك.

جلستُ برهبة في المقعد نفسه الذي جلس فيه جدي من قبل، لكني لم أضحك ضحكتَه الرزينة، بل فغرتُ فمي مذهولة. ولأنني لم أكن أعرف أن الأفلامَ تُشاهَد بالعين، اعتقدتُ أنّها تُبتلَعُ ابتلاعاً، ففتحت فمي على وسعه، وابتعلتُ الأصواتَ، وحزنَ الممثّلين، والعتمةَ، ورائحةَ الغبارِ الغامضة، والستارةَ الحمراء، والضوءَ المتدفّق من الشاشة الكبيرة. ابتلعتُ ذلك كلَّه بِنَهَمٍ، وكأنه آخرُ فيلم سأتمكن من مشاهدته طوال حياتي، فقد انتابني شعورٌ

أنهم لن يعرضوا علينا ثانيةً مثلَ هذا الفيلم، كذلك كنت متيقّنةً من استحالة إقناعِ أسرتي بالسماح لي مجدداً بالمجيء إلى السينما، فقد استنفدت الحيلَ وأنواعَ الابتزاز كلّها كي يأذنوا لي بذلك.

بعد انتهاء الفيلم، اشترت خالتي قطعتي «كلير» من مخبز فاخر، وتبرّعت بواحدةٍ لي، التهمناهما ونحن نمشي قرب الميناء. هبّت نسماتٌ ناعمة على وجهي ووجه خالتي التي كانت تضع نظارة شمسية حلوة. أردت حينها أن يتوقّف الزمن بنا أمام البحر بينما خالتي وأنا نلتهم الكلير، إذ كان أطيبَ ما تذوّقته في حياتي.

مرت سنوات عديدة، قبل أن أتمكن مجدداً من الذهاب إلى السينما، وحين ذهبتُ إلى هناك وجدتُ أن جميعَ الأفلام التي أشاهدها تخلّفُ طعماً سحرياً، هو طعم ذلك الشيء الذي يذوب في الفم ولا يُنسى، طعم الكلير المغطى بالشوكولا، فصرت أذهبُ إلى السينما خصيصاً لاستعادته، بعد أن تأكّدت أنه لا يوجد معمل أو مخبز في الدنيا قادرٌ على إعادة طعم تلك الشوكولا العزيزة مثلما تفعل صالات السينما.

عاطل عن العمل

«صار تنظيمُ مسائلِ النشر في الصحيفة مهمّةٌ شاقة» قال أنور لسمعان بينما كانا يشربان البيرة. ثم أخذ يشرح له أنّ الأمرَ لا يتعلق بمسائل مضجرة كالرقابة أو المنافسة. لقد كانوا يصرفون أتعابَ الصحفيين بحسب عدد كلماتِ موادهم وأخبارهم، ولأن الزمن تغيّر، والحداثة تتطلب مواد قصيرة، أخباراً سريعةً بجملٍ مباغتة مثل صفعة لئيمة أو طلقة مسدس، فقد أصدر أنور قراراً، بصفته رئيس التحرير، وعمّمه على المراسلين والصحفيين جميعاً.

– أنت أيضا حصلت على نسخة منه.

رد سمعان:

– نعم أذكر ذلك.

كان القرار يقضي برفع أتعاب الصحفي كلما قصرت مادته أكثر، تشجيعاً على الاختصار والاختزال. لقد كلف هذا القرار أنور منصبه.

يشرح أنور:

– الخنازير تمادوا في جشعهم، وأرسلوا لي صفحات فارغة، والصحيفة لم تصدر يوم الأربعاء الماضي بسبب ذلك. انظر إلي الآن! إني عاطل عن العمل، وأسرد لك هذه الخطبة الطويلة... إذا كان عندك المزيد من الوقت، فاجلس، عندي الكثير من الكلام، وسأطلب لك زجاجة بيرة جديدة.

ميسّي

الأكياسُ السوداء التي حُشرتْ بها أوساخُ الاستراحة أثقلُ بكثير مما تبدو، يحملها رضى إلى صدره النحيل، ثمّ يضعُها فوق العربة المعدنية. في هذه الاستراحة ينزل المسافرون ليتبولوا ويشتروا الشيبس، يرمون الأوساخ في البراميل، ويمضون في حافلاتهم. وحين يأتي الليل يأتي رضى، ولهذا يصعبُ عليكَ أن تراه أو أن تميز وجهه. يُفرغ البراميل من أوساخها في أكياس سود، ويرتّبها فوق بعضها في عربة تيبّستْ دواليبُها من الأوساخ والبرد. الأكياس في العربة تغطّي قامته فلا يعود يرى شيئاً، ومع ذلك يعرف طريقه جيداً، فيدفع العربة إلى الساحة الخلفية، ليختفي من المشهد.

في الساحة الخلفية يستريح أحياناً، فيشعلُ بعضَ الأعواد والورق ويجلس ليشاهد كرةَ القدم.

في الشاشة اليوم صبيّ اسمُه ميسّي، كلما راقص الكرة يتنهدُ رضى، وكلما أحرز هدفاً يتدافع رضى مع اللاعبين ليمسح على شعره. «هذا الميسّي نبي» يهمس رضى لنفسه، شاعراً بطمأنينةٍ وسعادة، وفي عينيه دموعٌ كدموع من انتهى لتوّه من صلاةِ الفجر.

استعداد وراثي للنسيان

– 1 –

تراجع في السمع

كان سهيل الشابَ الوحيد الذي يُسمحُ له بالجلوس في مجلس النساء. هو في أول الثلاثينات من عمره، له صوت خافت وبنية هزيلة. درس الجيولوجيا قبل أن يجد عملاً في مصنع لجوارب الحرير حيث يعمل عشرون عاملاً، نصفهم من الرجال والنصف الآخر من النساء. مع ذلك فإن البنات لا يسمحن لأحد غير سهيل بالجلوس معهن. هو ليس سعيداً جداً بهذا الشرف، ويضطر للجلوس معهن لأنه لا يعرف أحداً في المدينة، ولأنه خارج العمل يقضي معظم الأوقات وحيداً.

ليس واضحاً ما الذي يميز سهيل عن بقية العمال حتى تسمح له النساء بمجالستهن. اليوم قالت إحدى العاملات لأمها بصوت سمعه كلُّ العمال في المصنع: «لكنّ سهيل ليس رجلاً تماماً يا ماما. إنه امرأة أكثر مني». ولم تقصد الفتاة الإساءة له فهي لم تستخدم صفة «امرأة» لشتيمته أو التقليل من شأنه، بل للتأكيد على براءته وحسن نواياه. لا يعتقد أحد أن سهيل سمع عبارة الفتاة، لأنه تابع عمله في تغليف الجوارب في علبها الأنيقة كأن شيئاً لم يحدث. «وهو أصلاً لو سمعها لهشّم أنفها» قال عمال المصنع. وانتهى الحدث بارتياح عام، لأنّ عبارةَ الفتاة غير المسؤولة مرّتْ بسلام.

– 2 –

تراجع في الذاكرة

سهيل مهووس بمرض الخرف المبكر، ويعتقد أن أباه توفي بهذا المرض بالرغم من أنّ أحداً لم يخبرْه بهذا، ولهذا يضع سهيل نفسَه تحت المراقبة، خاصةً أنه منذ عمله في مصنع الجوارب صار ينسى كثيراً. لقد نسي مؤخراً المقلاة فوق السخّانة وغادر بيته، وحين رجع في الليل وجد الجيران متجمعين في غرفته ليطفؤوا الحريق قبل أن يودي ببقية البيوت في الحي. شعر سهيل بحزن، فهو لم يقصد إزعاج الجيران، ثم فجأة انقلب شعوره إلى حقد خالص وتمنّى لو أن الحريق أتى على كل البيوت، فقد تصوّر كيف استباحوا غرفته، وكيف كانت أغراضه الحميمة مفلوشةً على الملأ، وأنهم رؤوا أن كل ما تحويه غرفته هو تلفزيون مغبرّ موضوع على الأرض وسجادة رخيصة.

بعد هذه الحادثة قرر سهيل أن يصرف مرتّبَه القادمَ كاملاً ليشتري أثاثاً للغرفة كي يراه الجيران حين يضطرون لإخماد نيران جديدة.

– 3 –

رهاب التأخر عن العمل

لم يكن سهيل يتعمّد تركَ بابِ بيتِه مفتوحاً، لكنه من فرط خوفه من رئيسته في العمل يخرج بسرعة وتوتر من البيت كي لا يتأخر على موعد العمل، فينسى الأبواب مفتوحة، وهو يأتي غالباً إلى العمل في موعده بالضبط، لكن النتيجة نسيانات متكررة كان يربطها باستعداده الوراثي للإصابة بالخرف المبكر.

عندما تأخر الأسبوع الماضي صرخت به مديرة المصنع قائلة أنها توظف في المعمل رجالاً بالغين وليس مراهقين لا قوة لهم على حمل أجسامهم والمجيء للعمل، ثم أخبرته أنها تحتفظ به ليس لميزة في عمله بل لتعاطفها مع حاله، وأنها لو سرّحته من العمل لتحول إلى لص. ولحسن حظ سهيل فقد حدّثته على انفراد، لكن الجميع خمّن أنها أساءت إليه مجدداً حين رؤوا دموعه تسيل على خده وهو وراء الطاولة التي يغلف عليها جوارب الحرير في العلب الفاخرة. ولأن النساء عرفن أن سهيل بكى «كامرأة» بدل أن يسحق رأسَ صاحبةِ المعمل تحت حذائه «كرجل»، شعرن بخذلان وإهانة مصدرُها سهيل تحديداً.

منذ تلك الحادثة صارت النساء يبدين عدم ارتياح لوجود رجل مهزوز بينهن في استراحة القهوة والشاي، فصار سهيل يشرب الشاي وحده، ولم يترك العمل كما أقسم لنفسه حين أهانته الرئيسة مؤخراً، فهو من بين النسيانات الكثيرة التي يعاني منها، نسي تلك الحادثة تماماً. هو أصلاً عنده استعداد وراثي للإصابة بالنسيان.

كي يبقى كل شيء على ما يرام

وقفتُ هناك تفصلني عنها بضعة أمتار، وكنتُ – مصدومةً – أتأمّل والدتي وهي متكوّمة على الأرض. تمنّيتُ لو أنني متّ قبل أن أرى هذا المشهد.

سيطرتْ عليّ فكرةٌ وحيدة، هي أنني في العشرينات وأمامي عمرٌ طويل كي أمحو هذا الشعور بالخزي، وليتشوّش هذا المشهد في ذاكرة الذين تجمعوا على الأسطح والشرفات ليتابعوا المشهد الحي لاقتتالٍ بالأحذية بين أمّ وابنتِها، أمّا أمي فقد تخطّت الستين ولن يكفيها ما تبقى من عمرها لمحوِ هذا العار. هكذا فكّرتُ.

كنتُ قد خرجتُ من المنزل، بالرغم من أن أمي أمضت الصباح تتوسلني كي لا أخرج، وهي تردّد بطيبةٍ ورجاء: «إن كل شيء في هذا البلد تقريباً على مايرام»، ثم تحوّلتْ توسّلاتُها إلى شكلٍ من التهديد ثم الابتزاز، ذكّرتني بغضبِ أبي، وحاولتْ منعي بالقوة من الذهاب، ولكني هربتُ من البيت مهددةً بألا أعود ثانية إلى هذه المرأة المستسلمة، الملقاة الآن على الأرض، وإلى ذلك الرجل الذي سمحتْ له بأن يكون أبي.

هكذا خرجتُ مهرولةً، وقد عقدتُ النّية على ألا أعودَ أبداً. أمي التي حاولت اللحاقَ بي، والتي تعثرت توّاً وهي تجري خلفي بثيابِ النوم، كانت – قبل أن تتعثر وتقع – تشتمني بصوت عالٍ، وتأمرني بالرجوع، فيما أنا أتمهل قليلاً ثم أتابع سيري، وكان تصميمي يكبر مع ارتفاع حدة تهديدات هذه

المرأة وابتزازها، إذ جرتْ خلفي وبدأت تتحدث إلي بصوت عال سمعه كل الجيران، مبررة – لي وللجيران – خوفها وذعرها على حياتي ومبررةً محاولتها منعي الخروج بالقوة، ومعبرةً عن حبها، وكنت أدير لها ظهري وأبتعد، لكنها لسوء حظي تعثرتْ ووقعتْ، وأثناء ذلك ازداد عدد الجمهور على الشرفات، بينما خرج بعض الرجال والنسوة من دكاكينهم ليتابعوا الفيلمَ الحي.

حين أدركتْ أمي أنها لن تلحق بي، وأنني سأذهب مباشرة إلى حيث ينبغي ألا أذهب، خلعتْ فردتي حذائها ورمتني بهما، وقد تطايرتا خلفي وزادتا من غضبي، فالتقطتهما ورميتها بهما، وعندما لم تصب ضربتي، خلعت فردة حذائي ورميتها باتجاهها، وقد أصبت هدفي. عندها فقط سالت دمعتان على وجهها، وعندها فقط فكّرتُ في أنني في العشرينات وأنها اجتازت الستين، وأن أمامي حياةً بطولها وعرضها لمحو هذا المشهد الحزين المخزي من ذاكرة الممثلين وذاكرة الجمهور، أما هي فلن يكون أمامها متسع من الوقت للنسيان. هذه المرأة الحنون والقاسية التي هدرت عمرها في تربية أولادها وحمايتهم وتبرير فعائل زوجها أمامهم. كنت عازمة بالتأكيد على الخروج والتوجه إلى حيث كنت أنوي التوجه، لكنني تراجعتُ، تراجعتُ حافيةً وغاضبة، غاضبة من دموعها، وغاضبة أكثر لأنها تعثرت.

رجعتُ إليها، وعندها فقط نهضتْ. ارتدتْ كلٌّ منا حذاءها، واتجهنا إلى المنزل.

حمزة

كان حمزة ما يزال في بطني، ولم أكن أدري حينها إن كان صبياً أم بنتاً. كنت أهرول به بلا وعي في الصباحات الباكرة إلى الأراضي البعيدة، وبلا وعي أو سببٍ مفهوم أقعد على التراب، وأزيل الطبقة السطحية منه، ثم أحفر بأصابعي حتى أصل إلى الطبقة الرطبة، بذرّاتها الناعمة، ولونِها الأحمر، فأبتلع حفنةً منها، ولم يكن بوسعي منعُ نفسي عن فعل ذلك.

تخلّيت عن هذه العادة في اللحظة التي أتى بها حمزة إلى هذا العالم. كان ضخماً كدبّ، وكسولاً كخروف، ولامبالياً كدجاجة، وعنيداً كذبابة، وشارداً كبقرةٍ في حقل، وبطيءَ الحركةِ كسلحفاة. بدا حيوانياً أكثرَ منه بشرياً. ومنذ اليوم الذي تعلّم فيه الكلام نتشاجر طوال الوقت.

حتى السنة التي أرسلتُه فيها إلى المدرسة كان يفترش الأرض المحيطة بدارنا، يبعد الأتربة السطحية، ويقضي وقتا ممتعاً وهو يبتلع التراب الرطب الأحمر الناعم المختبئ هناك. كنت أوبّخه فيتوقف عن ابتلاعها أمامي، ولكنني أعود فأراه هناك، لا يتوقف عن التهام طعامه المفضل حتى أجرّه إلى داخل البيت.

كان الحلُّ الوحيد لإيقافه عن التهام الأتربة الحمراء هو ربطُه بحبلٍ متين، ولكنْ... هذا حمزة! وبالرغم من أنه أَشْبَهُ بكائنٍ خرافيٍّ اجتمعتْ فيه كلُّ الصفات الحيوانية، السيئة منها تحديداً، إلا أنه لا يمكنني أن أربطه بحبل، فبالرغم من كل شيء، حين يتجوّلُ ويركض في الأنحاء، وحين أرى ضحكتَه

تضيء وجهه، كنت أشعر بفرحٍ لا يشبهه أيُّ فرح.

حين كبر حمزة، أصبح أضخمَ رجلٍ في القرية، وحين كنتُ أراه يمشي بتلك القامة يخال لي أن زلزالاً سيقع، لكنه كان يمشي خفيفاً كنسمة، كأنه لا يدوس الأرض.

في أيار قبل ثلاث سنوات تقريباً، قال لي أنه سيذهب مع بقية الأولاد الذين بعمره إلى القتال، ولم أكن أعرف الكثير عن تلك الجبهة أو كم سيبقى هناك، لكنني كنتُ متأكدةً أنه على خطأ، فأي شيء يفعله حمزة هو بالضرورة خطأ، وكنت أعرف أن ثمّة كارثةً بانتظاره، ولكنني تذكرت يوم كنت أخرج في الفجر إلى الأراضي البعيدة لألتهم التراب الأحمر، وتذكرت أن شيئاً لم يكن ليوقفني وأن شيئاً كان يدفعني بجنون، جنون تخلى عني يوم ولدتُ حمزة، ليحل به، وكنت أعرف أن شيئاً لن يوقفه.

أعادوا نصفَ جثّته إلينا، وأرسلوا النصف الثاني إلى عائلة أخرى، بدلاً من جثة ولدها التي تحولت إلى غبار.

بكيتُ، وصرختُ، لكنّ أحداً لم يفهم كلمةً واحدة مما قلت. كنت أزعق كحيوان ذبيح، أحفر الأرض وأُخْرِجُ تراباً وأرميه في الهواء، بالضبط كما اعتدت أن أتحدث مع حمزة، هكذا بلا كلمات، وكان يفهم عليّ، ويردّ بالأسلوب ذاته، كأننا معاً قطيع من وحوش.

هكذا تحولتُ إلى ذئبة، أخرج ليلاً وأنوح. أشكو لحمزة اشتياقي له، بينما عيناي تبحثان في الفراغ حول البيت، الفراغ الذي كان قبل اليوم مليئاً كأن قطيعاً من الغزلان والأحصنة والفراشات يعفر التراب حوله.

استمرّتْ تلك الهيستيريا حوالي السنة، ثم صرتُ ما أنا عليه اليوم. صامتةً، راضيةً، أشاهد شفاهَ الناس وهي تتحرك من دون أن تصلني أصواتُهم، إذ لم

أعد أسمع شيئاً مما يجري حولي، وقد حدث ذلك تحديداً يومَ اجتمع الجميعُ في ساحة القرية، وبدؤوا يرقصون ويغنون احتفالاً بفوزهم في إحدى المعارك الدائرة في البلاد، وأطلقَ عشرةٌ منهم الرصاصَ دفعةً واحدة، وقد وصل إلى مسامعي يومها رصاصُ فرحِهم، ورغبت أن يكون ذلك آخر صوتٍ أسمعه من هذه الحياة. وقد كان.

الفصول تمرُّ من هنا

عند الصباح يخرج جاري من منزله وفي فمه سيجارة غير مشتعلة. عند منتصف الطريق بين بيتِه وزاويةِ الحارة يقف ليشعل سيجارتَه، وعند تلك الزاوية ينتظر السرفيس، وحين يأتي يُطفِئُ السيجارةَ بحذائه، ويقفز إلى فم السرفيس، فيختفي، ليعود عند العصر.

عند العصر وعندما يصل السرفيس يبصقُ ركّابَه من جوفه، فيمشي جاري عائداً إلى منزله بالسرعة ذاتها التي ذهب بها عند الصباح. في فمه سيجارة يشعلها حال سقوطه من السرفيس. وعند اقترابه من البيت يطفئ السيجارة بكعب حذائه.

الهيئة ذاتُها، الملابس ذاتُها، كل شيء يحدث كأنه على ساعة بيج بن. إلا هذا الشيب. كثلجٍ خفيٍّ يهطل ندفاً صغيرةً، وببطء. لكنه يهطل كل يوم. لاشيء يتغير. جاري يذهب ويعود. وأنا أتلصص عليه وعلى الآخرين. الثلج يهطل علينا. وعندما نكتشفه، يكون قد فات الأوان. ويكون حقل الحنطة الذي ينبت على رؤوسنا قد حان حصادُه.

ستربتيز

من حُسنِ حظّ سكانِ هذا الحي أن الشارع الذي يجمعنا عريض ونظيف وقليل الازدحام، ولهذا فقد صار المكانَ المفضّلَ لبناتِ الحيّ والأحياءِ المجاورة لقضاء الوقت والتسلية فيه، وقد تحوّل بمرور الوقت إلى حلبةِ مصارعةٍ ناعمةٍ لاستعراض القوة، فالفتيات يختلْنَ فيه بملابس أنيقة اخترْنها بعناية لتُظهر شيئاً من أسلحتهنّ يعتقدن بأهميته. كل بنت تعتقد أن شيئاً ما من جسدها هو الأهم والأكثر فتكاً. هناك من تعتقد أن الأثداء هي الأهم فتلبس كنزاتٍ بقبّات مفتوحة، وهناك من تحرص على تضييق البنطلون عند الأرداف لاعتقادها أن الأرداف هي الأهم، وهناك من تحرص على إظهار الكتفين، وهناك من تمطّ شفتيها وتلوّنهما بألوان مثيرة، وهناك ذاتُ المؤخرة المغرية التي تعتقد أن بإمكانها زلزلة العالم كله بهزة واحدة منها، وهناك... وهناك...

وسطَ هذه المشاحنات الصامتة ظهرتْ نبال، وهي شابة بعمر الصبايا اللواتي يتمشّين في الحيّ، ويُظْهِرْن جزءاً من أجسادهن، لكنّ نبال لا تظهر شيئاً من هذا، فلديها شيء آخر لتظهره: بنت رضيعة، تحملها إلى حضنها وتخرج بها للحارة. لم ير أحدٌ نبالاً مرة واحدة في الشارع من دون صغيرتها، كما لو كانت سلاحَها الذي لا تخرج من دونه. تمشي بغرور وتعالٍ وهي تحملها، وترمق الشارع كما لو أنها تهدد العالم بها.

تؤمن نبال أنها هي الفائزة بين هؤلاء النسوة، وأنها تملك أقوى ذراع في

الحي. ترغب لو أنها يوماً تضرب بذراعها واحدةً من هذه البنايات العالية وتهدمها كي تثبت انتصارها، وتثبت هزيمة الأخريات، فباستعراض القوة هذا ستنتصر نبال لا محالة، ليس بما تخلّفه من رقة أو أنوثة. بل بالأمومة. الأمومة التي ما هي إلا الوقوف في انتظار إشارة استفزاز كي تضرب إحدى هذه البنايات العالية بيد من حديد وتهدمَها.

نساء العائلة

حين ارتدتْ خالتي فتون تنورتَها البنفسجية المطويّة كمروحة اليد وسترتَها الخضراء التي صمّمتها بنفسها، نظر جميعُ من في العائلة إليها باستهجان، وحاولتْ أخواتُها جاهداتٍ ثنيَها عن الإقدام على هذه الخطوة المتهورة، فقد اعتبرْن هذا الخلطَ بين اللونين خطأً فاحشاً في حقّ الأناقة والموضة، ذلك أن أحداً في طول اللاذقية وعرضِها لم يسبق له الخلطُ بين هذين اللونين، وحذّرتْ نساء العائلة خالتي فتون من أنها ستصبح أضحوكةً، وقالت أختها الكبيرة:

– انظري يا فتون إلى بساتين قريتنا، تعلّمي خلطَ الألوان منها. الأخضر ترينه إلى جانب البني أو الأصفر، يمكنك أن تجمعي الأخضرَ مع الأبيض أيضاً. لكنْ أرأيتِ زاويةً واحدةً من حولك يجتمع فيها اللونُ البنفسجيُّ مع الأخضر؟

إلّا أنّ رأسَ خالتي فتون توقفَ عن العمل في ذلك الوقت، إذ كانت هناك قوة خفيّة تدفعها لتتصرف بهذا التهور، فقد كانت عاشقة، والعشقُ في دستورِ عائلتِنا هو الآخرُ مثلُ مزجِ الأخضرِ مع البنفسجيّ.

وهكذا لبستْ فتون ثيابَها الجديدة، ومضتْ باتجاهِ حدسِها.

...

كان قد مضى عشرون عاماً على تلك الحادثة حين مررتُ بشارعٍ طويل في المدينة ينصّفُه صفٌّ طويلٌ من أشجارٍ أراها لأول مرة، يطلقون عليها اسم الجاكرندا، بدأت تظهر مؤخّراً في المدينة، موطنُها الأصلي أمريكا الجنوبية، وقد كانت عاليةً بأوراق خضراء تتخللها أزهارٌ بنفسجيةٌ على هيئةِ أبواق رقيقة، تبثّ في الأجواء طوال الوقت أغنياتٍ خافتةً أرسلتْها نسوة أمريكا الجنوبية مسانَدةً لنساء مدينتي اللواتي مسّهن الجنون. كنت لأول مرة أرى اللونَ البنفسجيَّ يقف إلى جانب اللونِ الأخضر بكلِّ هذه الوحشية، والغرابة، والثقة. وقفتُ عاجزةً عن فعلِ أيّ شيء سوى الاستماعِ لتلك الأغنيات التي تبثّها الأبواق الصغيرة، وتأمُّلِ الجَمالِ الذي يفيض على الشارع، متيّقنةً أن ما فعلتْه خالتي فتون قبل عشرين عاماً لم يكن خرقاً للقوانين؛ لقد كانت سابقةً للأزمنة والجغرافيا، وداخلَها قوةٌ، هي القوةُ ذاتُها التي تجعلُ الفراشةَ تطير، والسمكةَ تسبح، والصوصَ ينقرُ قشرةَ البيضة ويخرج للوجود.

شؤون أمينة المكتبة

بين بابِ بيتِها ومدخلِ المدرسة التي تعمل أمينةً لمكتبتها أربعةُ أمتار. لقد كانت محظوظةً بالحصول على موافقة العمل هنا. فحتى الأمتارُ الأربعة على قلّتها تكلّفها الكثيرَ من تسرّعِ القلب والتعرّقِ والخوف. لم تزر عيادةً نفسية طوالَ حياتِها، لكنها تعرف أنّ لديها رهابَ الجموع. تصل المدرسةَ في وقتٍ مبكّر جداً، وتغادرها قبلَ انتهاءِ الدوام الرسمي بقليل كي تتجنب الحشودَ الهائلةَ التي تريد أن تخرج من باب المدرسة في اللحظة ذاتِها.

البناتُ اللواتي يغادرن المدرسة عند انتهاء الدوام صاخباتٌ، ويتحرّكن بسرعة. لسبب ما ستشعر فيما لو خرجت معهنّ كشعورِ من يجرفُه سيلٌ أو بحرٌ أو يبتلعُه جبٌّ عميق. طوال حياتها لم تتناول حبةَ دواء للتخفيف من الدوار أو القيء الذي يسبّبه الخوف من الأعداد الكبيرة للناس الذين يحبسون أنفسهم في مساحات ضيقة، فهي تعرف تماماً كيف تدير هذا الخوف. والمكتبة هي أفضل مكان للعمل. المكتبة لا يدخلها أحد سواها. وهي أصلاً ليست مكتبة. إنها غرفة مدهونة بلون أبيض مصفر ومتقشر. حتى أنه لا يوجد فيها كتب. كثير من الطالبات يعتقدن أن كل مدرسة يجب أن تحوي على غرفة فارغة يسمونها المكتبة، تشغلُها موظفة نحيلة تخاف من التجمعات. هناك الكثير من الطالبات في مدارس هذه المدينة يعتقدن بالفعل أن المكتبة هي غرفة فارغة خفيفة الإضاءة، خالية من الكتب، تشغلها امرأة غير متزوجة وقليلةُ الكلام. والطالبات مهذبات كثيراً مع أمينة المكتبة، ويحترمن هذا الخلل، ويبذلن جهداً في حمايتها من ضجيجهن وازدحامهن.

شيء ما حدث. فمؤخراً تتهامس الطالبات كثيراً عندما يلتقين بها في ممرات المدرسة. إحدى التلميذات أحضرت الأسبوع الماضي صوراً لتريها لها، لكن أمينة المكتبة شعرت بخوف رهيب حين شاهدت الصور. كانت في الصورة ساحةٌ صغيرة، وعشرات الناس محشورون فيها. كانوا يرقصون لعروسين أحدهما من المفترض تلك التلميذة التي أحضرت الصور. حين شاهدتهم أمينة المكتبة خافت، وشحب لونها، كما لو أنهم يرقصون حولها داخل المكتبة، فتقيأت. الطالبة الشابة أصيبت بالإحباط، إلا أنها كانت ممتنة أن أمينة المكتبة لم تتقيأ على الصورة، لكن أمينة المكتبة تعرف من نظرات التلميذة وتجنبها لها أنها لم تغفر لها فعلتها، وتعرف أن الطالبات حضّرن لها تهمةً وأوصافاً وأمراضاً تخصّ بقاءها عانساً، وهذا بالنسبة لها ظلم، لأن هذا لا علاقة له بذاك، ومنذ ذلك اليوم تتهامس التلميذات كثيراً بشأن أمينة المكتبة. لكن ذلك ليس شأنَها. إن شأنَها الوحيد في هذه الحياة أن تُجنّبَ نفسَها تكرارَ هذا الخوف الرهيب. أن تحمي نفسها من هؤلاء الذين لا يمكنهم التحرك إلا على هيئة سربٍ، أو قطيعٍ، أو جيشٍ جرار.

ذلك الماضي

تقريباً كلُّ الشقق في هذا الحي لها شرفاتٌ تجلسُ فيها العائلاتُ لتراقب بعضها كوسيلة مسلّية لقتل المساءات الطويلة. وسط حركة تبادل المعلومات السمعية والبصرية تلك، تزأر مصاصات المتة بقرقعةٍ تُحْدثهُا المياه الساخنة المشفوطة عبرَها، والتي يحلو لسكان الشرفات أن يبالغوا في القرقعة بها.

هناك شرفة واحدة فارغة، في الطابق الثاني، تبقى فارغة طوال الوقت، بابُها الزجاجي الآن مفتوح، لكنّ العتمةَ خلفَه تمنع المتطفلين في الشرفات من رؤية ما بداخله. خلف الباب صالون صغير فيه مكتبةٌ تسترخي فيها مزهريات رخيصة وكؤوسُ نبيذ تراكمَ عليها الغبار.

في الصالون باب مفتوح نصف فتحة يُفضي إلى غرفة نوم معتمة فيها امرأة مستلقية على السرير، مستغرقة في النوم، بينما يقف رجل سارحاً بأنظاره عبر النافذة، سيخرج بعد قليل لإنجاز شيء لابد من إنجازه، لكنه لا يدري ماهو. إنه عدنان، أصغر الضباط المتقاعدين في البلد، فقد عمل المستحيل ليخرج باكراً من الجيش، واستهجن فعلتَه كلُّ من عرفه، ماعدا هذه المرأة التي تنام هنا. بعد تقاعده المبكر اشترى «سرفيس»، وعمل سائقاً على الخط الشمالي للمدينة، لكنه اليوم يفكر مجدداً بتغيير مهنته، فهو يلتقي دائماً بشبابٍ يتفرسون بشاربيه ووجهِه المألوف بينما يناولونه الليرات المعدنية، ثم يغلقون الباب وهم يشكرونه بحرارة، وينادونه بـ «سيدي». هو لا يتذكر أحداً منهم، هو لا يتذكّر أحداً من حياته السابقة، لكنّ عمله كسائق لا يترك له

فرصةً لاستئصال ذلك الماضي. وهو الآن عند هذه النافذة يسرح في أفكاره ويتساءل: ما العمل.

يريد أن يعمل في مكان آخر، سيكاشف اليومَ المرأةَ التي تنام الآن في الغرفة. سيقول لها أنه لا يحتمل الإحراجَ الذي يسبّبه هؤلاء العساكر السابقون، وأنه ليس «سيد» أحد. إنه عدنان سائق السرفيس، والذي سيبيع سرفيسه اليوم من دون ندم، وسيعمل في تربية الدجاج.

ضابط متقاعد

دخل إلى العيادة العمومية مرتدياً قبعةً تشبه قبعةَ غيفارا، كان قد نالها هديةً من ضابط روسي قبل سنين بعيدة. الطبيبة تجلس خلف مكتبٍ كبير، وتدقق بالمكبّرة في أرجل المرضى المصابين بالسكري. ألقى التحية وعرّفها بنفسه:

– أنا العميد المتقاعد رجب.

ردت عليه من دون أن ترفع نظرها:

– أهلاً بك.

بحث وسط الزحمة عن مقعد له، عازماً على الجلوس في أقرب مكانٍ لطاولة الطبيبة. كان ابنه يسنده من ذراعه، ويساعده في الجلوس والمشي والحركة، وأحياناً يساعده في شرح أفكاره حين ينسى واحدةً منها.

سألها: هل تستطيعين مساعدتي؟

ردت: كيف أستطيع مساعدتك؟

قال لها: أنا مريض سكري، ولكن مشكلتي ليست في السكر، مشكلتي في هذا الرأس. في النسيان... نسيان كل شيء. هل لديك دواء يعيد الذاكرة؟

كتبت له الطبيبة وصفةً على عجل.

حمله ابنه من ذراعه ليتناول الوصفة من الطبيبة، ثم ودّعها ومضى مسنوداً بذراع ابنه الشاب.

في الشارع دعك الوصفة باحتقار، وطلب من ابنه أخذه لعيادة حكومية أخرى.

الوصفة لم تكن لتنفعه، ذلك أنه ليس الشخصَ المصابَ بالنسيان وإنما هؤلاء البشر، وهو بحاجة لعشرين مليون وصفة من هذا الدواء الذي يعيد الذاكرة، عسى الشعب يستعيد ذاكرته أخيراً ويتذكر سيادتَه، سيادةَ العميد رجب. لكن الآن لا بد من الدخول إلى عيادة جديدة، إن التكلم إلى هؤلاء الأطباء لا يكلف شيئاً فهم يعملون في عيادات الشعب، والتحدثُ إليهم يريحه قليلاً، من ألم الجلوس وحيداً والاختلاءِ بكل تلك الذكريات التي نسيها الجميع ولم يعد يتذكرها أحدٌ سواه.

ابنة العقيد

يعرف جميعُ الأطفال أن معلمةَ الرياضة الجديدة مهووسةٌ بأظافرِ يديها، وأنها طوال الليل تشذّب هذه الأظافر، تزيل عنها الألوان القديمة، وتطليها بألوان جديدة، فإذا أتى النهار نسيت تعب الليالي وهي ترى انعكاس الضوء على السطح المصقول لأظافرها، وينتابها بذلك شعورٌ عميق بالرضى.

كانت تُعرَفُ باسم «ابنة العقيد» بعد أن خسرت اسمها الشخصي فورَ معرفةِ أهالي القرية لهويةِ والدها.

في الشتاء كنا نقضي ساعة الرياضة في غرفة الصف لأن ابنةَ العقيد ذاتُ بنيةٍ هشةٍ، لا تقاوم البردَ والوحلَ في الخارج. لكنْ، وحتى لا تُحرمَ أجسامُنا البضة من الرياضة، اقترحتْ ابنةُ العقيد أن نمارس ما يُصطلح على تسميته برياضة الأصابع، بينما نحن جالسون في مقاعدنا، داخلَ غرفةِ الصف، وهكذا كنا نضمّ أصابع يدينا أمام وجوهنا، نفردها، ثم نعيدُ ضمَّها، فرياضة الأصابع رياضة تبث الدفء في الأيدي المتجمدة من البرد، كما كانت ابنة العقيد تشرح لنا.

أما في الصيف فلم يكن يُسمح لنا بالخروج إلى ساحة المدرسة في حصة الرياضة بسبب خوفِ ابنة العقيد من الشمس القاسية، وكي لا تظهر بقعٌ جديدة من النمش على وجهها، ولهذا كنا نبقى في غرفة الصف، نستمع إلى الدروس:

كرة القدم: 11 لاعباً

كرة الطائرة: 6 لاعبين

كرة السلة: 5 لاعبين

وكنا نهز رؤوسنا بتهذيب، ونجتهد لحفظ الأرقام.

ذات يوم، وفيما كانت تلقننا درساً عن أبعاد عوارض المرمى في لعبة كرة القدم، أخذتْ ابنة العقيد تتأمل بذهولٍ أظافرَها المطلية. كانت تبدو مغيّبةً عن الوعي في حمى تركيزها تلك، تتمشّى في الغرفة المغبرّة، وتتلو علينا آياتِها الرياضية.

أمام اللوح وُضِعت (بلوكة) لنخطو فوقها، ونرفعَ قاماتنا حين نريد الكتابة على اللوح الأسود.

مشدوهةً ببريقِ أظافرِها الطويلة، مذهولةً تحت سحر اللون الجديد للمانوكير، تمشّتْ ابنةُ العقيد أمامَ اللوح ناسيةً أمرَ (البلوكة) الصغيرة التي ترقد مباشرة في طريقها، وكان من السهل، وبقليل من الخيال الهندسي، أن يعرف الأطفال أن المعلمة ستتعثر بالصخرة، وأنها ستطير مثلَ ملاكٍ على علوّ 30 سنتيمتراً تقريباً قبل أن تسقط محطِّمةً نصفَ عظامها، وهذا ما حدث.

فجأة صدر عن غرفة الصف زعيقٌ جماعي، تبعَه سكونٌ رهيب، ثم صوتُ قهقهةٍ هستيرية صنعتها جوقةٌ من 29 طفلاً.

أخذوها بعد ذلك إلى المستشفى ليداووا لها كتفيها المخلوعين، وبدلاً عنها، أحضروا معلّمةً في العشرين من عمرها، ترتدي – ويا للعجب – ملابسَ رياضيةً، وقبعةً صيفية. لم تكن المعلمة الجديدة تطيق غرفةَ الصف، ولهذا تُخرجنا إلى ساحة المدرسة وأحياناً خارجَ المدرسة. صرنا نركض خلفها في شوارع القرية مثل الجيوش الصغيرة، نهتفُ بحماس:

واحد اثنان.. واحد اثنان

وكانت تلعب معنا كرة القدم، ليفوز، لا محالة، الفريق الذي تلعبُ معه.

صارت المعلمة الجديدة معبودةَ التلاميذ الصغار، لكنها لم تكن كذلك بالنسبة لأهاليهم، إذ سخطَ الأهالي على المعلمة كثيراً، فهي تعيدُ أبناءهم إليهم بملابسَ مغبرّة، تفوح منها رائحةُ العرق والقذارة، هذا إذا لم تكن قد مزقتها سقطةٌ مباغتة، أو تدافعٌ عنيف حدث أثناء عراكهم على الكرة. لكنّ انزعاجَ الأهالي من المعلمة الجديدة كان بشكل خاص بسبب الهدير الذي تطلقه جيوشُها الصاخبة التي تطوف شوارع القرية لاهثةً خلفها.

ولهذا فكثيراً ما ترحّم أهالي القرية على أيام ابنة العقيد، أيامَ كانت القرية أهدأَ من مقبرة.

أضرار جانبية

في الربيع وقبل أعياد الفصح والشعانين بأيام قليلة، قام مهرّبون باختطاف مطران مهم وذي سمعة طيبة، كان في سيارة فولكس فاجن يقودها شمّاس صغير السن. أراد المهربون مبادلةَ المطران باثنين من قادتِهم، قُبض عليهما قبل مدة من قبل الشرطة. حدثت إثر ذلك مفاوضاتٌ هادئة عبرَ وسطاء عقلاء، وكان الجميع يدرك أن المطران سيكون بخير، إذ لا يمكن لمن يمتلك ذرةَ مشاعر أن يتسبب بالأذى لمثل هذا القديس، وبالفعل أدت تلك المفاوضات فيما بعد إلى الإفراج عنه من دون أن يصاب بأي أذى، إلا أن تلك المفاوضات التي نجحت في تحرير المطران، باءت بالفشل في الإفراج عن الشماس الذي كان يقود السيارة، والذي اختفى مع المطران في تلك الحادثة، ذلك أن الخاطفين كانوا قد قتلوا الشماس أثناء عملية الاختطاف، فالعملية لم تكن لتنجح ذلك النجاح لو بقي الشماس حياً، ولكان تسبب للخاطفين بالكثير من المتاعب، ثم إن الأوامر كانت واضحة:

- أحضروا «المطران» حياً.

ترميم

صار أبو جهاد يأتي للمنزل تقريباً مرةً كلَّ شهر، يحملُ عدةَ التصليح، ويصلح شيئاً معطّلاً في بيتي، حيث تتوالى الأعطال من دون توقف. وبالرغم من هذا، لم أجرؤ على اتخاذ قرار بالتخلص من هذا السكن واستبداله بسكن صالح للبشر، كما لم أجرؤ على استبدال «أبو جهاد» بمهنيّ أفضل يضع حداً لهذه الأعطال المتكررة.

لم يعد أحد يستدعي «أبو جهاد» لتصليح الأعطال، يفضلون جميعهم مهنيين أكثر حذاقة منه. لقد تجاوز السبعين من العمر. وآن له إذاً أن يتقاعد. أستدعيه كل شهر مرة على الأقل. ليصلح عطباً في البيت. أتفرج عليه صامتاً معظم الوقت، يتسلق الجدران، يصعد للسقيفة، يضرب بدقة، ولكنه يلهث لصعود حتى درجتين، ويتعرق حتى لحمل المطرقة.

يبدو أنني زبونته الوحيدة، فما أن أطلبه على الهاتف حتى يحضر خلال دقائق.

يراقبني بحنان، ويحبس ضحكة. يترك دائماً قطعةً على وشك العطب، بحيث يضمن تعطلها في أقل من شهر.

أنا زبونته الوحيدة، وهو ضيفي الوحيد. منذ غادر الجميع المكان الذي نعيش فيه، منذ غادر الجميع زماننا الذي نعيش فيه.

يسرّب لي مثل خزانٍ على وشك الانفجار، قطراتٍ من الحكمة. أسرّب له مثل فاكهة في أواخر صيفها، ابتساماتٍ مختمرة بالمحبة.

هكذا متأثرةً بحكمته، عرفتُ بعد فوات الأوان، أن الكمال أكبر العيوب، لغةٌ مغرورة لا يفهم مفرداتها سوى صاحبها، وأن الهشاشة سلّمُ الآخر لعزلتنا، لغةٌ يفهمها البشرُ كلّهم.

الإوزات المتوحشات

ما الذي يتوقّعه العالمُ والقراءُ ورؤساءُ تحريرِ الصحف من صحفيّ مقيمٍ في بلدٍ تدورُ به واحدةٌ من أبشع الحروب في العالم؟

بالتأكيد يتوقعون منه مادةً عن الحرب.

نعم، يريدون مني مادةً عن الحرب، الزملاء الذين انتقلوا للعمل في الصحف الجديدة التي بدأت تظهر خارج البلد بعد اندلاع الحرب. كان كرماً منهم أن يوجّهوا دعوةً كهذه لشخصٍ مثلي، نسيَ الجميعُ أنه صحفيّ بمن فيهم أنا نفسي. ليس هذا فحسب بل عرضوا علي لقاء المادة الواحدة مقابلاً مادياً يعادل مرتّبي الوطني كاملاً فيما لو كنت غير عاطل عن العمل وأتقاضى مرتباً.

إنها مشكلة حقيقية بالنسبة لصحفيّ، أن يعيش في منطقةٍ على هامش الحرب. لا أشلاء هنا، لا صواريخ، لا حواجز، لاشيء على الإطلاق. بضع مئات من الناس العاديين الذين يذهبون عند الصباح لحلابة الأبقار وسقاية الباذنجان والبقدونس. لا مراسلين حربيين، لا طائرات، لا قذائف. لا شيء على الإطلاق. وبالرغم من أننا هنا نعيش ظروفَ الحصار، إلا أننا لسنا محاصَرين. لقد بدأت ملامح العوز تبدو على وجوه السكان هنا. يبدو أن السنوات الطويلة للحرب، استنفدت مدّخرات الناس، لقد انتهى عهد الملابس الأنيقة، والأحذية النظيفة، فسكان هذه القرية لا يكادون يؤمّنون الحليب لأطفالهم بعد أن ارتفعت الأسعار بجنون، وبعد أن فقدت الكثيرُ

من العائلات معيليها، الذين سحبهم الجيش الوطني شاباً تلوَ الآخر، ورجلاً تلوَ رجل. ولقد كان هؤلاء المسحوبون للخدمة يعودون من المعارك أحياناً أحياء، يزورون زوجاتهم، ويزرعون على عجل أطفالاً، هم آخر ما تحتاج إليه عوائل هذه القرية، فالشيء الوحيد الذي يفعله هؤلاء الأطفال غير البكاء هو استهلاك الحليب، الذي صار غالي الثمن، غالي الثمن لدرجة أن نصف مرتّبك الوطني يلزم لتأمينه.

ليس لي أطفال، لكنني أعلم هذه الأشياء من الأحاديث التي تصل مسامعي في منزل خال أمي الذي أختبئ عنده، وهو رجل عجوز توفيت زوجته من دون أن تخلف له أيَّ ولدٍ يؤنسُ شيخوخته. لقد تم استدعائي للخدمة العسكرية قبل سنتين، حدث ذلك مباشرة بعد أن عاد من الحرب في يوم واحد ثلاثةٌ من شباب القرية في ثلاثة توابيت، ولقد أصيبت العائلاتُ بالذعر، وجن جنون الأمهات اللواتي علمن أن أبناءهن سينتهي بهم المطاف في جثة ملفوفة بالعلم الوطني، وأن الحرب لن تُبقي على شاب واحد في القرية. هكذا اختبأتُ مع عدد من الرجال والشباب المطلوبين للخدمة في أماكنَ لا يخطرُ لأحدٍ أن أحداً قد يختبئ بها، في انتظار أن تنتهي الحرب، التي يتوقع مني زملائي الصحفيون أن أكتب مقالاً عنها.

لقد سمعت من خالي العجوز أن كثيراً من الرجال الفارين من الخدمة العسكرية خرجوا من جحورهم كي لا يموتوا من الجوع والعزلة، واستسلموا أخيرا للحرب، وهم يقاتلون اليوم على الجبهات الساخنة في كل مكان تقريباً. ماعدا هذه القرية. أعتقد أنني الرجل الوحيد الذي مازال صامداً في مخبئه، يتابع أخبار الحرب بواسطة هاتفه المحمول، ويخشى أنها لن تنتهي قريباً.

مؤخراً صار من الصعب تبليل أرغفة الخبز التي يأتي بها الرجل العجوز بأي نوع من الأطعمة ما عدا الزيت والملح. لم يبق لدي الكثير من المال لأموّل به موائدي في مخبئي هذا. ما تبقى يكاد لا يكفي لشراءِ أرغفةِ الخبزِ السيئة التي تبيعها الحكومة بأسعار مخفضة. ثم إنني بت شخصاً غيرَ مرغوبٍ به هنا. إذ لماذا لم ألحق بالرجال مثلَ باقي الرجال؟ ما الذي سيدفع بعجوزٍ أو امرأة لمساعدتي في مخبئي، بينما أولادهم وأزواجهم يموتون في المعارك؟ لماذا أحيا أنا ويموت هؤلاء؟ أنا نفسي أفكر أحياناً بمثل هذه الأفكار.

تصير القرية شيئاً فشيئاً كمقبرةٍ من شدةِ الملل. لا أجرؤ على الابتعاد عن مخبئي كي لا يمسكوا بي ويرحّلوني إلى إحدى جبهات القتال. ثم علي أن أتدبر أمر النقود. أنا صحفي وأستطيع كتابة شيء مقابل بعض المال عسى أستطيع البقاء هنا مدة أطول. لكن عن ماذا أكتب؟ إنهم واضحون في مطلبهم. يريدون مادة عن الحرب. وأنا لا شيء لدي هنا سوى الملل. من يرغب بقراءة أي شيء عن الملل. لو أنّ حدثاً واحداً يستحق أن أكتب عنه يحصل هنا. تفجيرٌ مثلاً... كما حصل مؤخراً في إحدى ضواحي المدينة. لكنْ من يهتم بإحداث تفجير في قرية، صار أعظمَ حدث فيها هو أن يمرّ سرب الإوز زاعقاً في سمائها.

سرب الإوز، أتذكره الآن وأنا مستلق في العتمة، لقد شاهدته الأسبوع الماضي، وتيقنت أنه الخريف، مجدداً، من دون أن ينتهي هذا. كانت الإوزات تزعق متجهة صوب الجنوب، صانعةً في السماء أشكالاً تشبه الطائرات الحربية التي أشاهد صورها من هاتفي المحمول.

سمعتُ صوتَ الرجل العجوز يتنقل في بيته، صارتْ حركاتُه متشنجةً وقليلةَ الصبر مؤخراً. أعلم أنه ضاق ذرعاً بي، وأنه يرسل لي رسائلَ تهديدٍ بنفاد الصبر عبر هذه الحركات المتشنجة. لم يتوقع الشيخ المسكين أن تستمر

الحرب كلَّ هذا، وأن يكون مضطراً لتحمّلِ وجودِ شخصٍ هاربٍ ومطلوبٍ في بيته كلَّ هذه المدة. لقد بدأتُ أفكر جدياً بالالتحاق بالجيش كي أُجنّبَ العجوزَ ورطةً هو في غنى عنها. وخطرت ببالي قبل أن أغفو دعوةُ أصدقائي الطيبة للكتابة عن الحرب لصالح مجلّةٍ تصدر خارج البلاد، وتذكّرتُ خارجَ البلاد، ورأيت وجهاً من القرية يتوعّدني بنظراته أن يشي بمخبئي، ولسببٍ ما رأيت أمي تدفن أبي مع أن أمي توفيت قبله. وكانت الإوزات في السماء تصغر شيئاً فشيئاً وهي تطير صوب الجنوب. وكنت أقف خلف النافذة أودّعها بنظراتي وقلبي يتوجع لسبب ما لمرآها. كانت تزعق وتصدر أصواتاً حزينة كأنها تخبّئ في حناجرها بكاءَ البشرية كله، وبدأت أصواتُها تخفتُ شيئاً فشيئاً، ثم انتهى ذلك كلّه، وغفوت.

الآباء يركضون

– 1 –

لم يكن الفجرُ قد بزغ بعدُ حين انطلقتْ صرخةٌ مدوّيةٌ في الشارع، ولم يكن قد سبقَ هذه الصرخةَ أيُّ حدثٍ يمكن أن يشرح أسبابَها. وبصدفةٍ عجيبة توقّفتْ تاكسي كانت تمرُّ في ذلك الوقت، ثم انطلق باتجاهِها رجلٌ بملابس النوم يحمل طفلةً قد تكون في العاشرة من عمرها أو أكبر قليلاً، يداها متدليتان ورأسها مائل للخلف. لم يكن هناك أي دم. ولا دلائل على نوبة صرع. لا شيء سوى طفلة متهالكة، وأب يحملها راكضاً بأقصى ما استطاع من سرعة، راكضاً كمن يهرب من شيء ويخشى أن يكون بانتظاره في آخر الطريق.

بعد ساعتين على الأكثر، حين سيعلن أطباء المستشفى أنه ليس بإمكانهم إعادة الطفلة إلى الحياة، سيتابع الأب ركضه لما تبقى من حياته، حاملاً خمسة وعشرين كيلوغراماً من الذكريات، التي تشدّ فرحَه نحو الأسفل، وتشدّ أملَه نحو الخلف، وترفع إحساسه بالذنب مثلَ منطاد يطير فوق المدينة، منطادٍ لا يمكن لأحد أن يلحظ شيئاً سواه. أيَّ شيء مهما حدث.

– 2 –

على الشرفة كانت دعاء قد دلقت سطلَ الماء لتغسل الغبار والأتربة حين سمعت الصرخةَ المدوية. حين جالت بنظرها نحو مصدر الصوت لم يكن هناك علائمُ لأيةِ شرفةٍ منهارة، أو لولد رمى نفسه من السطح، ثم شاهدتْ رجلاً بثيابِ النوم، يحمل جسداً لا حياة فيه، لفتاةٍ نحيلة قد تكون في العاشرة من عمرها، أو...

وقفت دعاء على الدرابزين حتى غادرت التاكسي المسرعة الحي. ثم بصعوبة عادت إلى مياهها المدلوقة على أرض الشرفة. من زاوية عينها اليسرى رأت بالوناً هائلاً يطير بصعوبة وثقلٍ في السماء. كان حزيناً بطريقة غريبة، حزيناً كما لا يمكن لأي بالون في العالمِ أن يكون.

وجـوه

- 1 -

زوجة الأستاذ طه

بعد ربع ساعةٍ بالضبط من بدء الحصة أراد الأستاذ طه أن يدلّل نفسَه بفنجان شاي أحمر، فأرسل لزوجته في الغرفة المجاورة وهو جالس خلف طاولة المكتب missed call. أمسك الأستاذ المسطرة وصار يخزّ بعنف على ورقة كتاب الانجليزي بقلم أزرق ناشف تحت بعض الأسطر. كان يصرّ أنها مرشّحةٌ بيقينٍ قاطع لأسئلة الترجمة في امتحان الثانوية العامة. يسطر بثقة، وبيد لا ترتجف، وبشيء من العنف، لكنه لا يمزّق الورقة. يرسم سطوره العميقةَ بحرفية عالية وبهندسةٍ واثقة، ونجحَ دائماً بألا يجرح الأوراق بالقلم، لكنه لم ينجح أبداً في رهانه المتعلق بأسئلة امتحان الثانوية العامة، إذ جاءت الأسئلة على غير ما يشتهي الأستاذ وما نشتهيه نحن طلابه، وضاعت الليرات التي دفعناها له إلى الأبد.

زوجةُ الأستاذ طه تتجوّل بين الغرف. يصلنا صوتُ حركتِها وهي تمشي، وهي تزحزح الأغراض في المطبخ والممرات. بعد خمس دقائق تقف متواريةً خلف الباب بحيث لا يراها أحد من طلاب زوجها الجالسين حول الطاولة. يلمحها الأستاذ وينهض من دون أن يحدثَ صوتاً، ويتناول الفنجان من يدها.

لا وجه لزوجة الأستاذ طه، إنها كتلة خارج الغرفة.

– 2 –

حبيبي زياد

خارج غرفتي في الطابق الثالث كانت تصل أصواتُ الناس والزحمة وأصوات اصطفاق أبواب الغرف المجاورة. غرفة واسعة لا أثاث فيها غير ثلاثة أَسِرّة وطاولة وسخانة كهربائية. فوق سريري لوحة رديئة نقلتها صديقة عن لوحة منشورة في الإنترنت، تُظهِر اللوحة خليطاً هائلاً لأطياف بشرية بأعمار مختلفة وهيئات بعضها يضحك والآخر يتأمل. أتمدد على ظهري بعد أن قمت بتغطية أربعةِ وجوهٍ في اللوحة بقصاصاتٍ بيضاء. لم يكن هناك مقصّ، فمزّقتُ الورقَ كيفما اتّفق لتتناسبَ المساحةُ بالضبط مع حجم الوجه المرسوم. عيناي على السقف ومرعوبةٌ من أن تأتي شريكتاي في الغرفة، فتكسران هذه الخلوةَ العذبة.

البارحة كذبت عليهما. هما أصرّتا أن أحضر فيلماً جديداً تتكلم عنه الطبيبات في الطابق الثالث. قلت لهما لا رغبة لدي. لكن المشكلة لم تكن الرغبة. مئة وخمسون ليرة تكلفة تذكرة الدخول. بمئة وخمسين ليرة أستطيع الذهاب للقهوة مرتين مع زياد لشرب الكابتشينو وتدخين السجائر. سيعود زياد نهايةَ أيلول، وتكون بشرتُه قد حرقتها الشمس المنعكسة عن صفحة مياه البحر قرب المطعم الذي يعمل فيه نادلاً طوال موسم الاصطياف. بالرغم من أن زياد حبيبي، وحبيبي كثيراً، إلا أنني لا أستطيع الآن استحضار شكل أنفه وعينيه. نسيت تماماً كيف ينبت شعر رأسه وكيف تبدو جبهته.

– 3 –

طبيعة صامتة

ذهبت اليوم إلى سينما رخيصة تعرض أفلاماً قديمة، لكنها أحياناً تكون جيدة، وتذكَرتُها بخمسٍ وعشرين ليرة فقط. عرفتُ مسبقاً أن أحداً غيري لن يشاهد العرض. المقاعد مصفوفة وخالية. أربعة عشر صفاً. أعتقد أنها أربعة عشر صفاً من المقاعد. وأنظر لسقف غرفتي حيث أستلقي الآن. كنت اليوم أجلس في أقصى يسار الصف الثالث. وزاوية المشاهدة لم تكن جيدة، لكني أحب النظر من الزوايا. بموازبةٍ وصمت. لم أكن وحيدة هناك. وزّعتُ على المقاعد الفارغة بعضَ الأصدقاء والمعارف. اخترتهم كيفما اتفق. جلسوا، وكانوا صامتين يسمرون أنظارهم على الشاشة، وكنت أتجنب النظر في وجوههم، وأصلّي ألا يأتوا بأية حركة، وألا ترن أجهزة موبايلاتهم، وألا يسعلوا، وألا يملوا من العرض فيمشوا ويكسروا انسجامي.

– 4 –

سقف الغرفة

في الشارع، حين أعود من السينما أطرق رأسي، فيتحول البشر إلى كتل وأطياف. في غرفتي، السقفُ منقّطٌ ببقع سوداء ربما تكون عفناً من شدة الرطوبة في هذه المدينة. شريكتاي في الغرفة ستعودان في أية لحظة، وأريد أن أتظاهر بالنوم حين تدخلان. سأغطّي وجهي بغطاء السرير الأبيض. لا يهمّني الحرّ طالما أستطيع التنفس تحت الغطاء. قبل هذا أريد متابعة تمزيق الورق الأبيض إلى دوائر. ماتزال بعض الوجوه في اللوحة مكشوفة، والعيون متسمّرة في هواء الغرفة. غطيتُ وجوهَ الأطفال أولاً. لهم أجساد صغيرة ونحيلة. ثم الوجوه الباقية. هناك وجه لبنتٍ تشبهني. ألصق عليه القصاصة البيضاء. ثم أنزعها. أتأملها... يا إلهي كم تشبهني. أطمس الوجه بالقصاصة الأخيرة. أتأمل اللوحة من مسافة بضعة أمتار. تبدو مثلَ صورةٍ لأحياء قديمة من بيوتٍ بيضاء بلا أيّ نافذة. بلا أبواب.

ذلك الماضي

صورة

كلّ من شاهد صورةَ نازك، قال: إن وجهَها في الصورة يبدو مثلَ شمس، وأحياناً مثلَ قمر، وأحياناً مثلَ بحيرةٍ يسبح فيها البجع.

الصورة المأخوذة منذ زمن بعيد، حين تأملتها نازك اليوم، انتبهت للمرة الأولى أنّ في عينيها يظهر خيال الرجل الذي كان حبيبها. عيناها اللتان تضحكان، منذ سنوات، بلا توقف، في الصورة...

يبدو واضحاً ظلُّ الرجل الممسك بالكاميرا. كان هناك، في العينين، ما يزال، منذ سنوات، ولكنها تراه الآن، للمرة الأولى، الرجل الذي لم يبق له من أثر، سوى هذا البريق الذي يجعل وجهها، في الصورة، يبدو مثل سماءٍ مرصّعة بالنجوم، أو نهرٍ تسبح فيه زوارق الصيادين أو بحيرةٍ للبجع.

بالعربية

في الثاني والعشرين من شهر تموز أرسلتْ حنان آخرَ رسالة إلى حبيبها كتبت فيها:

«المرأة العاشقة تستطيع كتابةَ حبها بكل لغات العالم، بالسويدية كما بالأمازيغية وأيضاً باليابانية، وأما إصراري على الكتابة لكَ بالعربية فلا يعني أنني لست واقعةً في الحب، إلا أن هذا الخوفَ الذي يشوب حبي لا تستوعبه سوى هذه اللغة، وهو، صدقني، عصيّ على الترجمة».

كان حبيبها يجيد التحدث بلغات كثيرة، لم تكن العربية واحدة منها.

موسيقا

حين يغضب خوسيه ينسى اللغة الألمانية، فتخرج كلماتُه الإسبانية كالرصاص. قبعتُه التي يتعمّد بها إخفاءَ ملامحه الكولومبية صارت في محطة قطارات دوسلدورف أشهَر من قبعة غيفارا.

حين يحزن خوسيه ينفخ في الهارمونيكا، وحين ينفخ في الهارمونيكا يحصلُ على قليل من المال، وحين يحصل على قليل من المال يخفض رأسَه قليلاً وينظر في عينيك، في مدينة لا أحد فيها غير خوسيه ينظر في عينيك.

تلويحة

بالرغم من فوات الأوان، صعدتُ الدرجَ بسرعةٍ علّني أجدُ القطار متأخراً بضع دقائق، لكنه كان قد مضى. على رصيف المحطة رأيتُ امرأةً تنظر للجهة التي مضى إليها القطار. وقَفَتْ هناك طويلاً، عيناها مغسولتان بالدمع، وكانت ترتجف، ثم استدارت ونزلتِ الدرج ولم يكن يُسمع لخطواتها أيُّ صوت.

غرقتُ في أفكاري وأنا أراقبها، ثم تذكّرت أنني نسيت القطار، وأن عليّ التفكير بالعثور على قطار جديد. لكنّ فكرة أن يودعك شخص في المحطة. فكرة أنني فوّتُّ القطار الذي كنت سأمضي به من دون أن ينظر للجهة التي سأمضي إليها أحد. فكرة أن هناك أحداً يودع أحداً في المحطة.

كلبُ شتيفي الهرم

تعيش شتيفي مع ثلاثة كلاب جميلة في بيتها المطلّ على حديقة صغيرة. اليوم خرجَتْ مع كلابها لتستمتع بالدفء والضوء بعد أن لمحتِ الشمس تتسلل أخيراً من مخبئها في السماء. تتحرّكُ شتيفي ببطء شديد، فوزنها الزائد لا يساعدها على الإسراع. وزنها زاد في السنوات الأخيرة لدرجةٍ سيصعبُ حتى على أصدقائها القدامى أن يتعرفوا عليها لو التقوها صدفة في الطريق. على أية حال لم يحدث مرّةً أن التقوا.

مع كلابها الثلاثة تتمشى حتى محطة زودبارك. هناك تأخذ استراحة طويلة وتتصيّد الركابَ الذين ينتظرون الترام لتتبادل معهم أطراف الكلام.

منذ أسابيع لا تتوقف عن الحديث عن كلبها الهرم. الكلب الذي ينام الآن متعباً عند قدميها. أحياناً تنزل إليه، تمسح تحت أذنيه، وبنبرة فيها الكثير من الرجاء والخيبة تطلب منه أن يتحرك.

«لقد كبر كثيرا»، تشرح:

«إنه متعب، ولم يعد يرغب بالبقاء هنا طويلاً».

النفق الحلزوني المظلم

ذهبتْ قمر مع أنطونيو وتيريزا مرةً أخرى إلى المسبح. قمر لا تسبح. كلُّ ما تفعله دفنُ جسدِها في الماء فلا يظهر منه سوى رأسها.

وقفتْ في زاويةٍ من حوض السباحة، وشردت بأنظارها بعيداً عن عيون الناس. اقترب أنطونيو وتيريزا منها سابحَين مثل ضفدعين. شرحت تيريزا لها للمرة الثانية أنها تأتي إلى المسبح مع أنطونيو خصيصاً لدخول النفق الحلزوني المظلم المصمم لإثارة الذعر في قلوب من ينزلق فيه. في النفق الحلزوني يجلسان خلف بعضهما ثم ينزلقان مع المياه بسرعة ويصرخان من الإثارة والفرح قبل السقوط أخيراً في حوض المياه، ولأنهما يتعانقان ويمسكان بأيدي بعضهما بقوة يشعران أنهما ينتصران على الخوف في هذه اللعبة التي تصبح حينها غبية وساذجة، وهما يشعران بالنشوة كلَّ مرة يُثْبتان فيها فشلَ هذه اللعبة في إخافتهما. كلاهما يضحك الآن بصخب، وبينما ترشف تيريزا الماء عن شفتي بطلها أنطونيو، تقول – معجبةً بنفسها – أنها، لا شك، ذاتُ أصول سمكيّة، وأن أنطونيو بالأصل تمساح!

تُسند قمر أثناء ذلك ظهرَها على حافة المسبح، وتشدد حراسة جسدها بالماء. بعد قليل عليها أن تذهب إلى الحمامات لأخذ دوش قبل العودة إلى البيت. الطريق من حوض السباحة إلى الحمام هو أسوأ ما يحدث لها هناك، حيث يصبح جسدها مكشوفاً، وحيث تعتقد أن كل الناس يتفرسون به.

الطريق من حوض السباحة إلى الحمام هو بالنسبة لها بالضبط النفق

الحلزوني المظلم، تعبره مذعورة، وتنزلق فيه قبل أن ترتطم بمرآة الحمام. هناك تنظر لنفسها وهي تفرد شعرها تحت الدوش، تنظر ملياً وتسأل نفسها تحت الدوش لماذا ترجع كل مرة إلى المسبح، هذا المكان المثالي للشعور بالوحدة.

تتذكر الآن أنطونيو وتيريزا، اللذين يُحضِرانها معهما إلى المسبح كي لا تبقى وحدها في الشقة وكي تشعر بأن الحياة حلوة، وكان ذلك يحدث بالفعل، تحديداً كلما سمعت صراخهما وهما ينزلقان المرة تلو الأخرى في ذلك النفق الحلزوني المظلم.

أمْريكا

منذ ربع ساعة وهو ينتظر خارج الصيدلية بلباسه العسكري الكامل، نحيلاً، ببشرةٍ حرقتْها الشمس، ولم تُبقِ من لونها القديم أثراً. حين فرغت الصيدلية من الزبائن دخل. المرأة ذات الشعر الأحمر خلف طاولة البيع ابتسمت له. نسي هو أن يبتسم لها، واكتفى بالنظر إليها كمن يحدق في شاشة تلفزيون، ثم تذكر:

– أريد قطعتي بلاستر.

حين عادت بقطعتي البلاستر، كان الشاب قد اقترب من طاولة البيع وأسند كفيه على سطحها الزجاجي. سألها بصوت منخفض:

– أين حنان؟

ابتسمت من دون أن ترفع رأسها:

– حنان سافرت قبل خمس سنوات ولم نرها منذ ذلك الحين.

– إلى أين؟

– إلى أميريكا حيث يعيش زوج أمها.

– أمْريكا!

قالها كمن يحدّث نفسه، استدار بذهول، ثم اختفى تاركاً على زجاج طاولة البيع قطعتي بلاستر وبحيرةً صغيرة من عرقٍ بارد.

خارج الصيدلية علت أصوات باعة الموز. كان يعرف شيئاً واحداً فقط: أن اسمه هاني، وأنه في شارع مليء بالموز. عليه الآن أن يتذكر أين هو بالضبط، وأن يقرر بناءً عليه في أية وجهة سيمضي.

بيتنا القديم

قلت له أني فرحت عندما رأيت ضوءاً متوهجاً في بيتنا القديم وأناساً جدداً قد سكنوه.

وتلك كانت كذبة عليه. كذبة على نفسي، وعليه.

بخط اليد

على الجدار الزجاجي لمحطة المستشفى الجامعي ألصق أحدهم قصاصة ورق كُتب عليها:

«عزيزي توبياس

الحي الغربي ليس شارعاً ولا حياً صغيراً! بحثتُ عنك طوال الأسبوع الماضي هنا ولم أجدك... أين يجب أن أبحث عنك أيضا؟

إذا حدث وقرأتَ رسالتي هذه أرجوك اتصل بي.

ملاحظة: آسفة جداً لما حدث!

سابينا»

مظاهرة صاخبة لأربع نساء

طوال السنتين الماضيتين حرصت غادة على تواجدها في كل الحفلات الموسيقية التي أقيمت في العاصمة، ابتداءً من دار الأوبرا حتى أصغر مسارح المدينة، وعند أبواب الصالات والمسارح كانت تقف حاملةً لافتةً كُتبَ عليها: «أوقفوا الكمنجات». جموع غفيرة عبرتها، قرؤوا لافتتها على عجل، وهزوا رؤوسهم أسفاً كما يفعل المرء حين يمر بشخص فقد عقله.

عُثر على غادة ميتة الأسبوع الماضي في شقتها الصغيرة. توفيت على أثر احتشاء في عضلة القلب. الذين دخلوا شقتها سمعوا موسيقى لمؤلف إيطالي اسمه فيفالدي خارجةً من كمبيوترها القديم.

بعد تلك الحادثة وكي لا تتكرر مأساة غادة، توزعت أربع نسوة عند أبواب المسارح التي تقام فيها حفلات الموسيقى في العاصمة، كن يحملن لافتات كُتب عليها: «أوقفوا الكمنجات».

صديق ماري

تصنّف بعضُ المراجع الطبية ذكاءَ ماري في درجةِ المحدود جداً.

بالرغم من ذلك، هناك رجل ولهان بماري.

ولهذا، ولأنها تعرف هذا، حين تصعد ماري القطار تحتضن بعينيها كلَّ المسافرين. ثم حين تغادر، تودعهم واحداً واحداً بتلك الابتسامة.

مزهرية في غرفة الجلوس

بين آخر الليل وأول الصباح تتفتح أزهار الزنبق في الجسد البضّ لمايا. تمدّ الزنابق أعناقها الصغيرة في انتظار قبلاتِ الندى الغامض الذي يطوف حول السرير. ستمتد يد مايا لتقطف الزهور على مهلها، واحدة، واحدة.

ثلاثون زهرة، بعدد سنين حياتها، ستضعها مايا في مزهرية العائلة فوق الطاولة المستديرة لغرفة الجلوس؛ يحلو لوالديها كثيراً أن يحتسيا القهوة وهما يمتّعان مرآهما بزهور مايا البيضاء في المزهرية.

مثل قالب زبدة

فاتَ قطارُ الزواج أن يتوقف في محطّة صباح، فكلُّ رجلٍ رآها قال: وجه صباح مثلُ غربال صدئ. أنت أيضاً ستفكر مثلهم، حين ترى وجه صباح وقد حفرت فيه شمسُ الفصولِ القاسية ورياحُها طوالَ الأيام التي خرجتْ فيها مع عمال اليومية لسقاية المحاصيل وتنظيف الأراضي البور من حجارتها الثقيلة.

جلد صباح خشن مثلُ أرض عطشى.

والبساتين التي تخصّ ملّاك الأراضي الكبار خضراء، تتدلى الثمار فيها مثل فوانيس في الليل. صباح ربّتها شجرةً شجرة، وحين من فرطِ نضجِها تتساقطُ الحباتُ عن أمهاتها، تغمض صباح عينيها، وتتمنى أمنية.

لا يوقظ صباح صوتُ منبّهٍ مذعور، بل يدُ أمها حين تمر كلَّ فجرٍ على وجهها النعسان. وكلّ فجر، تقول لها أمها قبل إرسالها للحقول البعيدة أنّ بشرتَها طرية وناعمة مثل قالب زبدة. وصباح تعرف جيداً أنها من الممكن أن تكون قالبَ زبدة، لأنها طوال السنوات الطويلة الماضية كانت تشعر أن من ثدييها يكاد ينفجر نهر، نهرٌ من الغزارة لدرجةٍ يمكن له فيها أن يغمر أطفالَ العالم بالحليب.

مثل العسل

كانت ماتزال شابةً حين توفيت زوجة فؤاد، ولم يبقَ من أثرها سوى صورتها في إطار صغير، وجملة ظل فؤاد يرددها لأصحابه: «مثل العسل، من شدة حلاوته، بعدَه يفقد كلُّ شيءٍ حلوٍ طعمَه».

عطر

حين مرّت رائحة عطرِ أنيتا بأنفي، قلت لزميلتها القديمة سوزانا: هذه رائحة عطر رجّالي! فردّت سوزانا: «إنه عطر الرجل الذي عاش مع أنيتا ثمانية أعوام ثم هجرها، فأخذت أنيتا تحيط نفسها برائحته كي تطرد من قلبها الخوف. مع الوقت لم تعد الرائحة تذكّرها بأي شيء لأنها ببساطة لم تعد تشمها، وقد بدّلت منذ تلك الحادثة ثلاثة شركاء، ولكنها لم تبدل العطر».

بحكم العادة ليس أكثر، تمدّ أنيتا يدها بشكل آلي إلى رف العطور في المتجر الصغير، وتسحب كل مرة الزجاجة نفسها.

منام

مرّ وقتٌ طويل على وفاة إلهام زوجة فؤاد، وقد رآها الليلة الماضية في المنام عائدةً من موتها. كان خجلاً جداً من الله لأنه شكّك في رحمته يوم خطف رفيقة عمره منه. بل إنه قد شكّك بوجوده. وطوال منام البارحة كان فؤاد يحاول إقناع الله بندمه، ويسجد عند قدميه تائباً، راجياً إياه ألا يقتل إلهام مرة أخرى.

عادات سرّية جداً

كانت تكلّم أكثرَ من شخصٍ واحد معاً. تحكي نكاتها وتضحك بصوت عال، راضيةً جداً عن حسها الساخر لهذه الليلة. كانت الساعة تقترب من منتصف الليل حين أيقظتها ضحكة طويلة صاخبة، فانتبهت أنها تكلم نفسها منذ ساعات، ساردةً لموظفي القسم الذي تترأسه «نكاتاً مهنية»، وأنها تضحك وحيدة مثل المجانين.

لا داعٍ للخجل، قالت لنفسها، ثم إنها تستمتع بنكات هذه الليلة، وتجدها مضحكةً للغاية.

على الصوفا المريحة عادت لاسترخائها، وسرحت بأفكارها بعيداً. بعد دقائق قليلة دوت في شقتها الواسعة ضحكة مجلجلة.

حكايتان

- 1 -

حكاية سهيلة

جلست سهيلة على مصطبتها المطلّة على الشارع تشرب الشاي بينما تراقب سكانَ الحي يعبرون، ذاهبين إلى سهرة متأخرة، أو عائدين لإكمال سهراتهم العائلية بهدوء. كانت سهيلة قد حبست شعرها خلف رأسها، لكن رياح الخريف أفلتته، فأخذ يتراقص ويشاكس الوجه الهادئ.

طعم الشاي كان رائعاً هذا المساء، وجعلها لسببٍ ما تفكر أن البشر الذين يسكنون الأرضَ عددُهم ربما مليارات، لكنّ العددَ فرديّ بالتأكيد، بحيث أنه يجب أن يكون هناك دائماً في هذا العالم شخصٌ وحيد، يحتسي شايه وحيداً.

- 2 -

حكاية رياض

غرفته لها شباك يطل على سفحٍ من رمال تتناثر فيه بضعُ أشواك وكثيرٌ من الأكياس السود. أغلق رياض ذلك الشباك الذي بدأت رياح الخريف تُدخل عبره كثيراً من الغبار. أغلق أيضاً شبابيك الغرف الباقية، ثم صنع لنفسه شاياً أحمر يحب شربه عند المغيب. كان طعم الشاي رائعاً، ولسببٍ ما ذكّره مذاق

الشاي الساحر في هذا الوقت الخريفي بأن البشر الذين يسكنون الأرض عددُهم ربما مليارات، لكنّ العددَ فرديّ بالتأكيد، بحيث أنه يجب أن يكون هناك دائماً في هذا العالم شخصٌ وحيد، يحتسي شايه وحيداً.

أشجار الكوكا

بشكلٍ مفاجئ، ومن دون مقدمات، دخل الدكتور زيد غرفةَ بناتِه، وبدأ محاضرةً طويلةً عن الحشيش والمخدرات والكوكائين، وعن المصيرِ الأسود الذي ينتظر كلَّ من يتعاطاها ومن يتاجر بها، وبعد الانتهاء من محاضرته خرج مغلقاً الباب خلفه، يعتريه شعورُ من أنهى مهمّتَه على أكمل وجه.

ابنته الصغرى كانت قد سمعت لتوّها ولأول مرة عن هذا الكوكائين، فالتفتت إلى أخواتها بعد أن غادر الوالد الغرفة قائلةً أنها تعتقد أن زيتونات الجدة لا قيمة كبيرة لها، وأنها ستفكّر جدّياً بإقناع الجدةِ أن تقنع الجدَّ باقتلاع عددٍ من شجرات الزيتون وزرعِ الكوكا بدلاً منها. يبدو أن زراعة الكوكا هي الحل الجذري للفقر الأزلي الذي تعيش به جدتها الحبيبة.

فكّرتْ، ثم قالت ليت بابا أضاء لها هذه الفكرة من قبل، كم كان سيوفر عليها من سنين.

ظاهرة

«هذا الطفل ظاهرة» قال البروفسور لطلابه وهو يشير إلى صورة حسين على شاشة العرض. «على الرغم من أنه يأخذ أعلى جرعةٍ مسموحٍ بها من دواء الأعصاب إلا أن طبيبه المعالج لم يتمكن من العثور على أي أثرٍ للدواء في دمه. أين تكمن المشكلة؟» سأل البروفسور طلابه، و لم يكن عندهم أية فكرة.

«الطفل يحمل طفرة». قال البروفسور مبتهجاً، وتابع محاضرته الممتعة عن الطفرات الوراثية.

وحقيقةً فحسين لم يرث عن أهله أيَّ طفرة، إنما ورث عن أبيه فقط سرعة الملل، إنه يرمي حبات الدواء من النافذة منذ ثمانية أسابيع:

– إنها شيء يبعث على القرف، هذه الحبوب.

حبّ حياتي

تعرّفتُ إلى راجح في الفترة التي كنتُ فيها طالبة في الجامعة. كنا قد التقينا من قبل في مكان ما، كلانا قال هذا للآخر، لكننا لم نعد نتذكر أين؟ غريبين كنا في هذه المدينة الهائلة، ولكننا لم نتُهْ، لأنه معاً كان لنا أربعة عيون. أحببته وكان حينها رجلَ حياتي. لقد اكتشفتُ معه كلّ شيء، فلا توجد خبرة في الحياة، ولا لذّة، ولا وجبة طيّبة، ولا شارع غريب، ولا موسيقى حلوة، ولا عرض مسرحيّ، ولا كتاب مهمّ، إلا تشكّلتْ ذاكرتُه مع راجح. لقد تحوّل ببطء إلى شبكة (كنفا) نُسِجتْ بين خطوطها كلُّ خيوطِ حياتي وألوانِها. وطوال معرفتي براجح كانت ترعبني فكرة أن يهجرني ويتركني وحيدة، فكرة أن يتخلى فجأة عني بسبب سفر أو جنون، أو بسبب... امرأة. لم أهنأ طوال ذلك الحب بدقيقة واحدة من راحةِ البال، بل كان خاطري يغلي طوال السنوات فوق نار الشك والخوف، فقد كان راجح شاباً جميلاً ورث عن والديه شكلاً فريداً من تقاطيع الوجه، وغرابة في الألوان تجعل أيَّ امرأةٍ تشتهي تلطيخ أصابعها بلونِ وجهه وتمريرَ يدها في شعره الغزير، والغرقَ في أجمل عينين يمكن لمخلوق بشري أن يمتلكهما، لكنّ راجح كان يتجنب النساء بفجاجة، ويتهرب من أيّ محاولةِ غزل، ليس عفّةً ولا زهداً بالضرورة، بل لأنه لم يرغب بأن يزيد شكوكي ومخاوفي.

وهكذا مرت السنة الأولى بسلام، واستطعتُ الاحتفاظَ بحبيبي.

ومرت سنتان بعد السنة الأولى واستطعتُ بنجاحٍ أن أكشَّ جميعَ أنواع الذباب عن هذا السكّر.

ازددنا قرباً من بعضنا البعض، وتعوّدنا على أخطائنا، وتجاوزنا كثيراً من الاختلاف بيننا.

في السنة الرابعة من معرفتي به تخرّجتُ من الجامعة، وكانت هناك سنة كاملة ماتزال بانتظاره. غادرتُ مدينتنا تلك السنة وتوجّهتُ إلى العاصمة حيث كانت هناك وظيفة جيدة بانتظاري، ولكنني كنت متأكدة أن امرأة ستسرق راجح مني، وقد كان عليَّ أن أحتمل كلَّ النيران التي تشتعل فجأة في الليل، خاصة في الليل، ولا يطفئها سوى اتصال مفاجئ به لأتأكد من أن راجح مايزال هناك، وحيداً، وأنني ما زلت امرأته ومحبوبته الوحيدة.

ثم تعرّفت على شوق، كان أحد الزبائن الذين يتلقّون الأموالَ ويرسلونها عبر المكتب الذي كنت أعمل به. إنّ رجلاً يحمل اسم «شوق» لا يمكن لامرأة ألا تتساءل من هو، وترغب برؤية وجهه. لم يكن لوجهه حلاوة وجه راجح، إذ لا يوجد وجه في العالم له حلاوة وجه راجح، لكنَّ صوته كان ساحراً ودافئاً وواثقاً. كان شوق يكبرني بواحد وثلاثين سنة، له كثيرٌ من الخبرات، وكثيرٌ من الأموال، زار عديداً من البلاد واشترى عديداً من البيوت والشقق، وعرف بعض النساء، ولديه ثلاثة أولاد أصغرُهم بعمري.

اتصلت براجح وأوضحت له في مكالمة لم تتجاوز الدقائق الثلاث أننا لم نعد حبيبين. كان ذلك آخر شيء سمعه مني، وكان صمته آخر شيء سمعته منه.

خرجتُ مع شوق عدداً من المرات، لكننا توقفنا عن ذلك فجأة ومن دون أسف.

اليوم وبعد مرور سنوات طويلة انتبهتُ أخيراً إلى أن نهايةَ كل حكايةٍ من الحكايا التي حدثت بعد راجح، انتهتْ حرفياً على النحو التالي:

«لم يعد هناك راجح.»

لكنني أحياناً أخلو إلى نفسي لأنهي الحكاية على نحو آخر، فأقول أنه بكامل ألقه، إلى أعلى ما يمكن لعاطفة أن تصل إليه، بقي.

بقي بقمة بهائه.

الموتى

منذ تعرّفتُ على الموتى وأنا أحرص على قضاء الليل بصحبتهم. إنهم مسالمون مثل الأشجار، ولا يقولون كلاماً جارحاً على الإطلاق.

صرتُ أشعر بينهم بألفةٍ لدرجةِ أنني أرغب أن يطول هذا الليل، بألا يكون لهذا الليل من نهاية.

اللعنات

كانت النار على وشك أن تنطفئ، وكان س قبالتَها، يتأمّلُها وهي تخبو. ألقى بعود حطبٍ نحيل ملقىً على الأرض، فتأجّجت نارٌ صغيرة شاحبة، أخذتْ تذوي بمجرّدِ اشتعالها. أثناء ذلك كان س يشبك ركبتيه بذراعيه جالساً على أرض الغابة، غارقاً كلياً في الشعلة الباهتة، وقبل أن تنطفئ، مدّ يده شارداً إلى يمينه، سحبَ عوداً يابساً نحيلاً آخرَ، وألقاه بتعبٍ إلى كومة الرماد، فأضاءتْ شعلةٌ صغيرة أخذتْ ترتجف مع الريح، ثم خبتْ شيئاً فشيئاً كالنعاس، فألقى بعودٍ جديد...

كان س على هذه الحالة منذ أيام. لا النارُ تنطفئ، ولا هي تشتدّ فتأتي على الغابة بمن فيها. قوةٌ لا تُقهر تثبّتُ س أمام النار عاجزاً عن تركها لمصيرها تنطفئ، كأنّ عقاباً إلهياً حلّ به، أو بها. وكان كلاهما من التعب، إلى درجةٍ ينوسان فيها بين النوم واليقظة، وبين الموت والحياة.

حين مجدّداً امتدّت يد س إلى عودٍ نحيل جديد، رعدت السماء وأبرقَت، وأفرغتْ الغيومُ حمولتَها دفعةً واحدة فوقه، فانطفأتْ نارُه إلى الأبد. جلس غيرَ مصدّقٍ وهو يغتسل بالأمطار، ثم خرّ على الأرض، وغفا طويلاً إلى أن حلّ الليل، وطلع النهار.

كرنفال الحادي عشر من نوفمبر

– 1 –

ليس فقط تحت تأثير الكحول حدث بينهما ما حدث، بل أيضاً بتأثير الجموع الهائجة التي عبرت المكان راقصةً مثل وحوشٍ في سيرك. كانت زجاجات البيرة تتطاير فوق الرؤوس لترتطم بعمودٍ أو حائطٍ موجودٍ بالصدفة وتتكسرَ إلى مئات الشظايا الصغيرة. آلاف منها تحطمت بينما الشباب يضحكون من دون توقف: صينيون، تايلانديون، عرب، فرس، إسبان، طليان، كولومبيون، وطبعاً ألمان، يضعون أقنعةَ الأرانب ومصّاصي الدماء، ويرقصون في ساحة المدينة القديمة. انتقلتْ شيئاً فشيئاً عدوى التحطيم والتكسير إلى كتارينا وفرانك اللذين رغبا أيضاً أن يتكسّرا بدورهما في أيّ زاوية، ولهذا غادرا ساحة الاحتفال باكراً راكضَين إلى شقة فرانك، وقد تم اختيار شقته لأسباب جغرافية بحتة، فالذهاب إلى شقة كتارينا كان سيكلف ربع ساعة إضافية ليس بالإمكان التفريط بها، إذ كانا مستعجلَين لدرجة أنهما لم يخلعا ثيابهما، اكتفيا بإنزال السراويل قليلاً، وانتهيا.

– 2 –

كل الموظفين في الشركة يعرفون أن أطول جملة تبادلها فرانك وكتارينا قبل الكرنفال كانت: «أتمنى لكم نهاية أسبوع سعيدة». بقية الجمل كانت من قبيل «صباح الخير» و «مع السلامة».

فكر الاثنان بالنمائم التي ستُنسج، وبالنكات التي ستُروى، ولم يتجرأا على النظر في عيون الزملاء الذين وبالرغم من تأثير كحول البارحة كانوا ما يزالون قادرين على التذكر تماماً كيف تسلّقت البنتُ قامةَ الصبي، ولفّت خصره بفخذيها، ثم كيف ركضا معاً فجأة لتلتهمها الأزقة. لهذا جلس فرانك وكتارينا كلٌّ خلفَ كومبيوتره، ولم يرفعا رأسيهما طوال نهار العمل.

– 3 –

عند المساء كان فرانك يتأمل كومة الصحون القذرة المتراكمة في مطبخه حين رنّ الجرس. خلف الباب وقفت كتارينا مرتبكةً وبيدها ملفوفة كبيرة.

«أليست فكرة جيدة أن نصنع معاً سلطة لوجبة العشاء؟» سألته.

«فكرة جيدة جداً» أجابها وهو ينزع سترتها عنها ليعلّقها في الممر.

الولد الذي يشبهه

– 1 –

عصفور الدوري رقيق وأصغر من قبضة يد، بالرغم من هذا حين تمسكينه، يغرسُ أظافرَه بشراسةٍ في يدكِ. أنتِ بشعور بين اللذة والوجع لا تملكين إلا أن تحتفظي به. ريشه الكثيف ينشر حرارة لذيذة على كفّك التي يغرس فيها أظافره، فتتساءلين إن كان هذا العنف انتقاماً لحريته، أم لعزلته، أم أنه تشبثٌ باليد التي هدّأت طرقات قلبه المجنون من الخوف.

الخوف الذي كُتب على جنس العصافير منذ بدء الخليقة.

– 2 –

في الليل وبعد مشاجرة طويلة تدفعكِ للتمدد بيأس في السرير كمن تنتظره نهايةُ العالم عند الباب، تدفنين رأسك تحت ثلاثة أغطية ووسادة، وتفكرين بحقائب فارغة مصفوفة فوق الخزانة.

قبل الفجر يندسّ تحت الأغطية الثلاثة لسريرك، يحضنكِ من الخلف ويشدّكِ إليه. كلاكما تحبسان أنفاس الليل في صدريكما. أصابعه مغروسة بكِ، وقلبه يدق بسرعة. شيئاً فشيئاً تهدأ الأكوان الثرثارة في الخارج، وتبدأ عصافير الدوري بالتململ في أعشاشها.

– 3 –

تتركين النافذة مفتوحةً لليل. تحسبين حساب مئة حمامة ستأتي لترقد عندكما الليلة. تمرّرين أنفك على ظهره وتغمضين عينيك على رائحة سهول بعيدة. قطراتُ عتمةٍ تتدحرج على جسده طوال الليل، لهذا تبدو سمرته أبدية، شيء لا علاقة للبشر به، أقرب ما يكون لحشائش برية أو حبة زيتون. قطراتُ المطر تتهالك على حافة النافذة من دون أن تستطيع الوصول إليكما، ولهذا كلما ضمّك، ينتابك حزنٌ شفيف على امرأة وحيدة، وعلى ضوء قمرٍ ينتحر فوق زجاج الشبابيك المغلقة.

– 4 –

تشعلين الشموع، تراقبين الظلالَ الرقيقة للشَّعر الذي يغطي جسدَه. مليون ريشة كان على ذلك الفنان أن يضرب حتى أنهى لوحته.

– 5 –

تشعرين بغيرة لا فكاك منها من شمسٍ لوّحته.

– 6 –

ليس لكِ منه طفلٌ، ولا ابنةٌ بعينين داكنتين، لكنّ حزناً يخصّ أمهات خائفات يسكنك. أحياناً بينما تشردين في مقعدك، تسمعين أصواتَ أولادكما يتراكضون بين الغرف. تحبين من بينهم، أكثرَ من تحبين، الولدَ الذي يشبهه.

ناشيونال جيوغرافيك

حين سرق الصيادون أصدقاء الشمبانزي وحشروهم في شاحنة. ركض مذعوراً خلفهم. ركض، وركض، حتى اختفى آخرُ أثرٍ للشاحنة، ليملأ الشمبانزي بزعيقه الهستيري فضاءَ الغابة.

أنا... مثلُه... هذا الشمبانزي، مذعورة من الوحدة، من وحشةِ هذه الغابة، إلا أن كبريائي يمنعني من الركض في أثر أحبتي، يمنعني حتى من تلويحة. وأؤكد لكم أنني لست أقلَّ ذعراً، ولا أقلَّ حزناً من ذلك الشمبانزي، وأبقى متسمّرة أمام الشاشةِ التي تعرض عريَه، أحدّق فيها مثلَ تحديق بشرٍ في المرآة.

شكراً أيتها الحرب

في الطريق إليه، كان كلُّ همِّ عبير أن تجعل عيونَ الناس مشغولةً عن طريقِها إليه. تضع نظارةً شمسية، وتغطّي شعرَها بحجابٍ تلفه ليغطي نصفَ وجهها، ثم تطرق برأسها ليستحيل على الفضوليين الذين يعبرونَها تحديدُ هويتها.

أهي أشياء غريزية لها علاقةٌ بميلِ إناثِ الثديات إلى الولادة وميل ذكورها إلى الصيد؟ لقد غادرها زوجها إلى الحرب، وانقطعت عنها أخباره، وقد تعرفت مؤخراً إلى رجلٍ يقيم في الطرف الآخر من المدينة، وبدأا يتواعدان، وهي فخورة ومقتنعة بهذه اللقاءات المتواترة معه، في الوقت الذي يمطر الذكورُ المدينةَ بالقذائف والصواريخ.

لكنْ يجب ألا يراها أحدٌ الآن ذاهبةً إليه؛ الحربُ قد تنتهي في أية لحظة، وسيعود الذكور من جبهاتهم، ومن اللائق أن تكون زوجاتُهم في انتظارهم.

في الطريق إليه، تسقط قذيفة في المسافة المتبقية بينهما، فتُسْرع إلى أقرب دكان وتختبئ فيه هرباً من القذائف.

خلف طاولة البيع رجلٌ يدخّن، تديرُ وجهها عنه، يجب ألا يحفظ ملامحَها. كلاهما الآن يستمع لأصواتِ انفجاراتِ القذائفِ التي أخذتْ تنهمر تباعاً في الشوارع القريبة.

حين هدأت الأصوات، خرجتْ عبير من ملجئها وتابعت طريقها. تكاثف الغبار الذي أثارتْه القذائف، وانشغل الناس بمراقبة الدخان وتخمين مصدر النار، من المستحيل أن ينتبه إليها الآن أحد. هذه أأمن مسافة ستقطعها طوالَ حياتِها.

قاتل الزهور المتسلسل

النبتة المنزلية التي تزيّن الصالون، كان أبو غسان قد أخرجها إلى الشرفة، شارحاً لعائلته كيف سيتاح لها هناك أن تتعرض للضوء والهواء، وكيف سيشتدّ عودُها وتخضرّ. لكن ما هي إلا أيام قليلة حتى ماتت الزهرة. و(ماتت من البرد) كانت العبارة التي أسدلت بها العائلة الستار على القصة.

بعد ذلك وفي إحدى نزهاتها في الجبل عثرت العائلة على زهرة برية نادرة فائقة الجمال، اقتلعتها أم غسان من جذورها وأحضرتها إلى البيت، حيث زرعوها في أصيصٍ فاخر، ووُضِعت في الصالون.

بعد أيام عُثر على الزهرة ميتة.

وقد توقفت العائلة بعد ذلك عن العبث في حياة الزهور، بعد أن ظهر جلياً أنها لا تصلح لتربيتها.

استندت العائلة إلى هاتين الحادثتين لإقناع ابنتها التي قررت بشكل مفاجئ أن تسافر إلى العاصمة لتعمل ممثلة في دور ثانوي في فيلم عن النساء، وقد رفضت العائلة ذلك بشدة محذرةً ابنتَها من أن الزهور التي تُزرع عنوةً في مكان لا يلائمها تذبل وتموت، لكن الابنة حزمت حقائبَها وغادرت.

وهكذا ذهبت الابنة إلى المكان الذي لا يلائمها، لكنها لم تذبل ولم تمت، بل عرشت طوال السنوات اللاحقة على مهل، وكانت تشبه (زهرة الشمعة) ذات الأوراق الصلبة التي تعرش بعناد على أي حائط يقف في طريقها، وتزهر عناقيدَ كثيرةً على هيئةِ نجوم.

النصيحة الشكسبيرية

في تلك اللحظة بالذات كانت صباح تدخن سيجارة على الشرفة، ساندةً جذعَها المحنيّ على الدرابزين، يبدو لك أنها تراقب العابرين، لكنها لم تكن تراقب سوى حياتها العابرة، وفي لحظةٍ سهو سقطت السيجارة من بين أصابعها، مشتعلة. كانت تعاتب نفسها ككل يوم:

«لقد أخبرتك يا صباح أن تحبي الرجل الذي حمل لك الحقائب، لأنك ستقضين بقية عمرك محنية الظهر إن لم تفعلي. انظري كيف تتحولين مع مرور الوقت إلى ما يشبه الجمل. يا لك من جملٍ سيءِ الحظ يا صباح».

ومن فرط حزنها كادت تسقط عن الشرفة، مثل سقوط سعاد حسني الشهير، ولكنّ الدرابزين الحنون كان يسند جسد صباح، ذا الظهر الذي أحنته السنوات والذكريات وحقائبُ السفر.

العجوز والنجوم

هناك نجمة عجوز ستنطفئ عما قليل.

فلاح واحد في القرية، واحدٌ على الأكثر، سينتبه لنقطةِ العتمة التي خلّفتها النجمة. باقي الفلاحين سيذهبون للحصاد، وسيشوون الخبز، وينجبون الأطفال، كأن شيئاً لم يحدث، فهم حين يرون النجوم يشعرون بالغبطة أجل، لكنهم لا يعرفون نجمة عن أخرى.

لسببٍ ما، سيكون بمقدورِ فلاحٍ ما، أن يرى نقطةَ العتمة التي تركتها نجمة، كان يميز وهجها فيما مضى، كما لو كانت قمراً.

صفحة الألبوم الفارغة

جلست نورا تقلّب ألبوم الصور، وقد فتحت للتو ّعلى فصل كامل بعشرات الصور الخلابة لحديقة كوكنهوف العالمية التي يعرفها كثيرون من كل أنحاء العالم، والذين يدّخرون المال طوال أشهر حتى يتمكنوا من قضاء ساعة واحدة بين أزهارها.

متّجهةً إلى تلك الحديقة حزمتْ نورا ذات يوم حقيبتها باتجاه أمستردام مفرّطة بمئات الدولارات من أجل هذه اللحظة التي تقلّب فيها اليوم صور الألبوم. ذكّرتْها الصور بالنّهم الذي أبدتْه حيالَ الحديقة وهي تتجوّل بين الأحواض الفاتنة التي تصنع تشكيلاتٍ مذهلةً من أزهار التوليب. كان شيئاً يفوق الوصف. لهذا بدأتْ ذلك اليوم تضغط زرّ الكاميرا بجنون، وبلا توقف. من اليمين. من الأعلى. من هذه الزاوية. صورة تُظهر السماء مع الزهور. صورة أخرى أقل انخفاضاً وأقرب كي تظهرَ تفاصيلُ التوليبات. يا إلهي. ثم هناك... زاوية لم تنتبه لها، تعاملت معها كما لو كانت رشفةً أخيرة يجب أن تبتلعها قبل أن تغادر، فقد اتخذت قراراً بألا تترك قطرةً واحدةً في هذا الكأس. وهكذا لم تشعر بالوقت. ثم فجأة ظهر ذلك الرجل – اللطيف والحساس – ليعرض بالانجليزية أن يلتقط صورة لها.

متأكدة اليوم أنها كانت في تلك اللحظة ترغب بتصوير الزهور، ولم يخطر في بالها أن يكون لها صورة شخصية بينها. لكنها أعطته الكاميرا، وهي تداري شعوراً بالعار، كمن قبضوا عليه وهو يختلس أو يتلصص أو يزوّر. ثم التقط

السائح لها صورة محترفة وسط أزهار التوليب. صورة لا تظهر اليوم في الألبوم الذي تقلبه، فبعد عودتها من تلك الرحلة، وفي كل مرة كانت تقلب فيها صور تلك الحديقة، تقفز فجأة وسط عشرات الصور الملتقطة للتوليبات صورةُ تلكَ السائحة الخجولة التي أقنعها رجلٌ لطيف وحساس أن تقف أمام الكاميرا، لتواجه العدسة التي ستوثّق عارَها إلى الأبد، عارَ وحدتِها التي كان الجميع يداري نظراته عنها. كانت الصورة كما لو أنها لشخصٍ ينتظرُ سقوطَ المقصلة. وكانت إضافةً لهذا تثير إحساساً بتعاطفٍ مذلّ، وتثير الأفكار حول الوحدة. ومرة بعد أخرى صار ذلك غيرَ محتمَل. وكان الحلُّ تقطيعُ أوصالِ الصورة إلى عشرات المزق والتخلصُ منها نهائياً.

لكن ذلك لم ينفع. فغياب الصورة – أكثر منه حضورها – كرّس لدى نورا بطريقة غير قابلة للعكس ذكرى تلك اللحظة التي تَقدَّمَ فيها ذلك الرجل اللطيف والحساس ليذكّرها بما كانت قد نسيته. ليذكّرها إلى الأبد.

كأنّه حيّ كأنّه ميّت

تمشي كروان على مهل. بهمومِ نملةٍ تحمل حبةَ شعيرٍ تفوقُها حجماً. وتمشي ببراءةِ من يثق أنه سيصل لهدفه وأنّ كلَّ عراقيلِ الحياة ليست سوى ديكور. تمشي كروان وهي تتلفّت ليس للفرجة، بل لتتأكد أن أحداً لا يحتاج المواساة أو أن أحداً لا يحتاج المساعدة.

تذكّرك مشيةُ كروان بمشية الحوامل.

الحامل تمشي بهذا البطء بسبب ثقلِ الشيءِ الذي تحمله في بطنها وبدافعِ الحذرِ على الشيء الذي تحمله في بطنها. لكنّ كروان لا تحمل شيئاً في بطنها. هناك شيء في صدرها يثقلها، شيء هش وتخشى عليه.

في عيون الحوامل أملٌ وبريقُ فرح، وفي عيون كروان مزيجٌ من الفزع والحزن.

كأنه ميتٌ هذا الذي لم يولدْ. كأنّه لن يولد.

ليندا حسين

كاتبة سورية، من مواليد اللاذقية 1981.

صدر لها:

- **القصة القصيرة:** «سماء واحدة لكل المدن» – دار أزمنة – عمّان 2007.
- **الترجمة:**

– «حياة كاملة» – روبرت زيتالر – رواية. دار التنوير 2017.

– «لا جديد على الجبهة الغربية» – إريش ماريا ريمارك – رواية. دار أثر 2020.

المحتويات

كل شيء تقريباً على ما يرام 7
شجرة السرو الكبيرة 9
كل شيء على ما يرام 10
عجوز الطابق الثالث 11
نكاية بالزمن 13
صورة عائلية 15
ثلاثة مشاهد عن نساء برجوازيات 17
كل شيء عن علي 20
تلك الشوكولا العزيزة 21
عاطل عن العمل 23
ميسّي 24
استعداد وراثي للنسيان 25
كي يبقى كل شيء على ما يرام 28
حمزة 30

الفصول تمرُّ من هنا 33
ستربتيز 34
نساء العائلة 36
شؤون أمينة المكتبة 38
ذلك الماضي 40
ضابط متقاعد 42
ابنة العقيد 44
أضرار جانبية 47
ترميم 48
الإوزات المتوحشات 50
الآباء يركضون 54
وجـوه 57
زوجة الأستاذ طه 59
حبيبي زياد 60
طبيعة صامتة 61
سقف الغرفة 62
ذلك الماضي 63
صورة 65
بالعربية 66

موسيقا..... 67
تلويحة..... 68
كلبُ شتيفي الهرم 69
النفق الحلزوني المظلم..... 70
أمْريكا 72
بيتنا القديم..... 74
بخط اليد..... 75
مظاهرة صاخبة لأربع نساء 76
صديق ماري 77
مزهرية في غرفة الجلوس..... 78
مثل قالب زبدة..... 79
مثل العسل..... 80
عطر 81
منام..... 82
عادات سرّية جداً..... 83
حكايتان 84
أشجار الكوكا..... 86
ظاهرة..... 87
حبّ حياتي..... 88

الموتى 91
اللعنات 92
كرنفال الحادي عشر من نوفمبر 93
الولد الذي يشبهه 95
ناشيونال جيوغرافيك 97
شكراً أيتها الحرب 98
قاتل الزهور المتسلسل 100
النصيحة الشكسبيرية 101
العجوز والنجوم 102
صفحة الألبوم الفارغة 103
كأنّه حيّ كأنّه ميّت 105